

بحوث قرآنية

في

التوحيد والشرك

يبحث عن

تحديد معالم التوحيد و الشرك

مع تطبيقات عملية

تأليف

العلامة الفقيه

جعفر السبحاني

قال الله تعالى :

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

النحل : ٣٦

وقال عز اسمه :

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾

الأنبياء : ٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين وآله
وصحبه المنتجبين.

أمّا بعد ،

فهذه بحوث موجزة حول التوحيد والشرك في القرآن الكريم أقدمّها إلى الجيل الصاعد
من أبناء أمتنا الإسلامية بُغية الحفاظ على كيانهم ووحدة كلمتهم وإنقاذهم من مخالب الشرك
وهدايتهم إلى حظيرة التوحيد.

فإنّ الهدف الأسمى لجميع الرسل هو مكافحة الشرك وتحطيم قلاعته ، قال سبحانه :

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾. (١)

وقد أضحت مسألة التوحيد والشرك من المسائل الهامة في

عصرنا هذا ، لا سيما وأنها صارت ذريعة لتشيت الصفوف وتمزيق الوحدة الإسلامية ، مع أنّ الواجب على كلّ مسلم الحفاظ على توحيد الكلمة وتعزيز أواصر الأخوة. ويأتي الكلام في الموضوع ضمن مقدمة وفصول.

كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة

بُني الإسلام على كلمتين : « كلمة التوحيد » والشهادة على أنه لا إله إلا الله ونفي ألوهية وربوبية كلٍّ موجود سواه ، و « توحيد الكلمة » والاعتصام بحبل الله المتين والنهي عن التفرق والتشتت وراء مسائل هامشية لا تمسُّ . في كثير من الأحيان . جوهر الإسلام ، ورائدنا في الدعوة إلى الوحدة وحفظ كيان الإسلام ، قوله سبحانه : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .^(١)

ولو سبرنا أقوال النبي ﷺ وسيرته العملية نلمس منها اهتماماته الكبيرة بتوحيد الكلمة ولمّ الشمل ، فإنّ الوحدة هي دعامة القوة والرفاه ونيل السعادة ، كما أنّ التفرقة هي بؤرة الضعف والشقاء والاندحار .

ولنقتصر من سيرته وكلامه ﷺ على الأمور التالية :

أ. قدم النبي ﷺ يشرب ، والأوس والخزرج يقودان جملة وشبّانهم يطوفون حوله وكانت القبيلتان هما الحجر الأساس لبناء الدعوة الإسلامية ، ولكن كان بين الطائفتين قبل اعتناق الإسلام حروب طاحنة أسفرت عن مصرع العديد منهم وكانت البغضاء والعداوة متفشية بينهم ، وفي تلك الظروف هبط عليهم النبي ورأى ضرورة رأب الصدع وتقريب الخطى بين القبيلتين بل جعلهما اخوين متحابين ومتراحمين.

فأول خطوة قام بها هي التآخي بينهما حسماً لمادة الخلاف وإنساءً للماضي. ^(١)

ب. انتصر المسلمون على قبيلة بني المصطلق ، فبينما رسول الله على مائهم نشب النزاع بين رجل من الأنصار ورجل من المهاجرين ، فصرخ الأنصاري ، فقال : يا معاشر الأنصار ، وصرخ الآخر ، وقال : يا معشر المهاجرين ، فلما سمعهما النبي ﷺ قال : دعوها فاتّما منتنة ... ^(٢) يعني أنّها كلمة خبيثة ، لأنّها من دعوى الجاهلية ، والله سبحانه جعل المؤمنين إخوة وصيّهم حزباً واحداً ، فينبغي أن تكون الدعوة في كلّ

١. الدر المنثور : ٢ / ٢٨٧ ، تفسير الآية ١٠٣ من سورة آل عمران ، نقل عن مقاتل بن حيان أنّ هذه الآية نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار ، إلى أن قال : فقدم النبي ﷺ فأصلح بينهم.

٢. ابن هشام : السيرة النبوية : ٣ / ٣٠٣ ، غزوة بني المصطلق.

مكان وزمان لصالح الإسلام والمسلمين عامة ، لا لصالح قوم ضد الآخرين ، فمن دعا في الإسلام بدعوى الجاهلية يعزر.

فالنبي ﷺ يصف كل دعوة تشق عصا المسلمين وتمزق وحدتهم بأنها دعوى منتنة ، وكيف لا تكون كذلك وهي توجب انهدام دعامة الكيان الإسلامي.

ج. نزل النبي ﷺ دار هجرته والتفت حوله القبيلتان : الأوس والخزرج ، فمرّ شاس بن قيس . الذي كان يحمل في قلبه ضغناً للمسلمين . على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس يتحدثون فيه ، فغاضه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم ، وصالح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية.

فقال : قد اجتمع ملأ بني قبيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شاباً من اليهود كان معهم ، فقال : اعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بُعث ، يوم إقتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذ خضير بن سماك الأشهلي ، وعلى الخزرج عمرو بن النُعمان البياضي ، فقتلا جميعاً.

دخل الشاب اليهودي مجتمع القوم فأخذ يذكر مقاتلتهم ومضاربتهم في عصر الجاهلية فأحي فيهم حميتهم حتى استعدوا للنزاع والجدال ، وأخذ الشاب يؤجج نار الفتنة.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين ، حتى جاءهم فقالص : يا معشر المسلمين! الله ، الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله بالإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم من الكفر وألف به بين قلوبكم. (١)

وقد تركت كلمة النبي ﷺ وقعا في نفوسهم ، حيث فطنوا إلى أنها نزع من نزعات الشيطان ، فندموا على ما وقع منهم ثم انصرفوا.

إن كلمة الرسول ، كشفت القناع عن الخدعة اليهودية ، وأطفأت نار الفتنة في مهدها ، ودخلت في القلوب المؤمنة وصيرتهم إخواناً متحابين.

هذه القصة وكم لها من نظير تعكس لنا المحاولات المستميتة التي يبذلها أعداء الإسلام بغية الإطاحة بوحدة المسلمين وتمزيق شملهم.

ولو كان في عصر الرسول شاس أو شاسان من اليهود ، ففي الوقت الحاضر المئات بل الألوف منهم جندوا قواهم الشيطانية ، وأثاروا النعرات الطائفية بين المسلمين من خلال طرح مسائل هامشية لتكدير صفوفهم.

إن أساليب الأعداء في إثارة الفتن لا تعد ولا تحصى ، ولهم مخططات مختلفة حسب ما تقتضيه الظروف والبيئات.

١. انظر السيرة النبوية : ١ / ٥٥٥ . ٥٥٦ ، ط عام ١٣٧٥ هـ.

فالعقل يفرض على المسلمين رصّ صفوفهم ، وتوحيد كلمتهم بغية الوقوف أمام تلك الخطط والمؤامرات.

إنّ مسألة التوحيد ونبذ الشرك من المسائل الهامة التي تعد الهدف الأسنى للأنبياء والمرسلين وكبار المصلحين. فالتوحيد رمز الإسلام وعزة المسلمين.

هذا ومع الاعتراف بأهميته ولكن وجدت . من خلال البحث في التوحيد والشرك . مسائل هامشية صارت ذريعة للاختلاف ووسيلة للتشتت فأثرنا في هذه الرسالة المتواضعة استنطاق القرآن الكريم في هذه المسائل والاستنارة بنور السنة النبوية التي اتفق المسلمون على كونها المصدر الثاني للعقيدة والشرعية بعد الذكر الحكيم.

وأخيراً ندعو المجتمع الإسلامي إلى ما دعا به القرآن الكريم ، وقال : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

فالمسلمون ملّة واحدة يجمعهم إله واحد ، وكتاب واحد ، ودين واحد ، وشرعية واحدة فما يجمعهم أكثر ممّا يفرقهم.

والجميع كما يقول شاعر الاهرام :

انّا لتجمعنا العقيدة أمّة ويضمّنا دين الهدى أتباعا
ويؤلف الإسلام بين قلوبنا مهما ذهبنا في هوى أشياعا
جعفر السبحاني

الفصل الأول :

تحديد الإيمان والكفر

الإيمان عبارة عن الإذعان بالله سبحانه واليوم الآخر ورسالة النبي ﷺ فهذه الأمور الثلاثة تشكّل دعائم الإيمان وأركانه ، وما سواها ترجع بشكل إليها.

نعم لما كان ما خلف النبي ﷺ من تراث في مجال المعارف والأحكام ضخماً لا يمكن استحضاره في الضمير ثم التصديق به ، اضطرّ العلماء إلى تقسيم ما جاء به النبي إلى قسمين : قسم معلوم بالتفصيل كتوحيده سبحانه والحشر يوم المعاد في مجال العقائد ، ووجوب الصلاة والزكاة ونحوهما في مجال الأحكام ، وقسم منه معلوم بالإجمال نعلم وروده في الكتاب والسنة ، فلا محيص للمؤمن أن يؤمن بالأوّل على وجه التفصيل ، وبالثاني على وجه الإجمال.

قال عضد الدين الايجي : الإيمان : التصديق للرسول فيما علم مجيئه به ضرورة وتفصيلاً فيما علم تفصيلاً ، وإجمالاً فيها علم إجمالاً. (١)

١ . الايجي ، المواقف ، ص ٣٨٤ .

وبعبارة أوضح : أنّ ما جاء به الرسول ﷺ إما أن يعلم به بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة والجهاد والحج ، وإما أن لا يعلم به كذلك .
 فالمؤمن هو الذي يعتقد بصحة كل ما بعث به الرسول ﷺ إلى أمته ، غير أنّ المعلوم بالضرورة ، يؤمن به تفصيلاً وما لم يعلم ، يؤمن به على وجه الإجمال .
 ويظهر ممّا تقدم أنّ الإيمان يتجلّى في أصول ثلاثة :
 الأصل الأول : الإيمان بالله سبحانه وتوحيده .
 الأصل الثاني : الإيمان بالآخرة وحشر الناس في اليوم الموعود .
 الأصل الثالث : الإيمان برسالة الرسول ﷺ وما جاء بها .
 والاعتقاد بهذه الأصول الثلاثة يورث الإيمان ويدخل الإنسان في حظيرته ويتّقي في ظلاله وظلال الإسلام .

هذا ما عليه علماء الإسلام دون فرق بين طائفة وأخرى ، وقد آثروا في ذلك ما روي عن النبي ﷺ في غير واحد من المواقف .

١ . روى الإمام علي بن موسى الرضا «عليهما السلام» ، عن آبائه ، عن علي عليه السلام ، قال : «قال النبي ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوا حرمت عليّ دماؤهم وأموالهم» .^(١)

٢. أخرج الشيخان ، عن عمر بن الخطاب ، أنّ عليّاً صرخ : يا رسول الله على ماذا ، أقاتل؟ قالص : «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم على الله». (١)

٣. روى أبو هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : «لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم على الله». (٢)

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على أنّ محور الإسلام والكفر كلمة «لا إله إلا الله ومحمد رسول الله» ولو اقتصر في بعض على أصل واحد ولم يذكر المعاد وحشر الناس أو لم يذكر رسالته فلوضحهما.

نعم ، ليس الإيمان بالأصول الثلاثة فقط مورثاً للسعادة ، ومنقذاً عن العذاب والعقاب ، بل لابدّ من انضمام العمل إليه واقتترانه بامتثال أوامره ونواهيه في الكتاب والسنة ، وذلك من الوضوح بمكان ، وقد وردت في هذا الصدد روايات عديدة تقتصر على قليل منها :

١. روى عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول

١. صحيح البخاري : ١ / ١٠ ، كتاب الإيمان ؛ صحيح مسلم : ٧ / ١٧ ، كتاب فضائل علي عليه السلام .

٢. الشافعي : الأئم : ٦ / ١٥٧ ، اقرأ كلامه فيه حول هذا الموضوع.

الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم شهر رمضان». (١)

٢. ما روي عن رسول الله ﷺ متضافراً أنه قال :

«من شهد أن لا إله إلا الله ، واستقبل قبلتنا ، وصلى صلاتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فذلك

المسلم ، له ما للمسلم وعليه ما على المسلم». (٢)

وعلى ضوء ذلك فالذي يميز المؤمن عن الكافر هو الاعتقاد بالأصول الثلاثة ، وأما ما

يوجب السعادة الأخروية فهو في ظلّ العمل بالواجبات والانتهاز عن المحرمات.

ويشير إلى الأمر الأول ما مرّ من الروايات التي تركّز على العقيدة ولا تذكر من العمل

شيئاً. كما تشير إلى الأمر الثاني الروايات التي تركز على العمل وراء العقيدة.

إذا عرفت ما يُخرج الإنسان من الإيمان ويدخله في الكفر ، يعلم منه أنه لا يصح

تكفير فرقة من الفرق الإسلامية مادامت تعترف بالأصول الثلاثة. وفي الوقت نفسه لا تنكر

ما علم كونه من الشريعة بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة وأمثالهما.

هذا ما نصّ عليه جمهور المتكلمين والفقهاء. (٣)

وها نحن نذكر بعض الشواهد على هذا الموضوع.

١. صحيح البخاري : ١ / ١٦ ، باب أداء الخمس من كتاب الإيمان.

٢. ابن الأثير : جامع الأصول : ١ / ١٥٨.

٣. لاحظ المواقف للإيجي : ٣٩٢.

١. قال ابن حزم عندما تكلم «فيمن يُكفّر ولا يكفر» :

«وذهبت طائفة إلى أنّه لا يُكفّر ولا يُفسّق مسلم بقول قاله في اعتقاد أو فتيا ، وإنّ كلّ من اجتهد في شيء من ذلك فدان بما رأى أنّه الحقّ فإنّه مأجور على كلّ حال ، إن أصاب الحق فأجران ، وإن أخطأ فأجر واحد. وهذا قول ابن أبي ليلى ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، وسفيان الثوري ، وداود بن علي وهو قول كلّ من عرفنا له قولاً في هذه المسألة من الصحابة (رضوان الله عليهم) ما نعلم منهم في ذلك خلافاً أصلاً»^(١).

٢. وقال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي : إنّ الإقدام على تكفير المؤمنين عسر جداً ، وكلّ من في قلبه إيمان ، يستعظم القول بتكفير أهل الأهواء والبدع مع قولهم لا إله إلا الله ، محمّد رسول الله ، فإنّ التكفير أمر هائل عظيم الخطر.^(٢)

٣. وقال أحمد بن زاهر السرخسي الأشعري : لما حضرت الوفاة أبا الحسن الأشعري في داري ببغداد أمر بجمع أصحابه ثمّ قال : اشهدوا على أنّي لا أكفّر أحداً من أهل القبلة بذنب ، لأنيّ رأيتهم كلّهم يشيرون إلى معبود واحد والإسلام يشملهم ويعمهم.^(٣)

١. ابن حزم : الفصل : ٣ / ٢٩١.

٢. الشعراي : ، البواقيت والجواهر : ٢ / ١٢٥ ، ط عام ١٣٧٨ هـ.

٣. الشعراي : البواقيت والجواهر : ٢ / ١٢٦.

٤. وقال التفتازاني : إنّ مخالف الحقّ من أهل القبلة ليس بكافر ما لم يخالف ما هو من ضروريات الدين كحدوث العالم وحشر الأجساد ، واستدل بقوله : إنّ النبي ومن بعده لم يكونوا يفتشون عن العقائد وينبهون على ما هو الحقّ. ^(١)

السنة النبوية وتكفير المسلم

قد وردت أحاديث كثيرة تنهى عن تكفير المسلم الذي أقر بالشهادتين فضلاً عمّن يمارس الفرائض الدينية ، وإليك طائفة من هذه الروايات :

١. بني الإسلام على خصال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً رسول الله ، والاقرار بما جاء من عند الله ، والجهاد ماض منذ بعث رسله إلى آخر عصابة تكون من المسلمين ... فلا تكفروهم بذنوب ولا تشهدوا عليهم بشرك». ^(٢)

٢. أخرج أبو داود عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : «أيما رجل مسلم أكفر رجلاً مسلماً فإن كان كافراً وإلا كان هو الكافر». ^(٣)

١. التفتازاني : شرح المقاصد : ٥ / ٢٢٧.

٢. كنز العمال : ١ / ٢٩ ، برقم ٣٠.

٣. سنن أبي داود : ٤ / ٢٢١ ، برقم ٤٦٨٧ ، كتاب السنة.

٣. أخرج مسلم ، عن نافع ، عن ابن عمر ، أنّ النبي ﷺ قال : «إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما». (١)

٤. أخرج مسلم ، عن عبد الله بن دينار ، أنّه سمع ابن عمر ، يقول : قال رسول الله ﷺ : «أبما امرء قال لأخيه يا كافر ، فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال ، وإلا رجعت عليه». (٢)

٥. عقد البخاري باباً باسم «المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك» ، يقول النبي ﷺ : إنّك امرء فيك جاهلية ، وقول الله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. (٣) (٤)

٦. أخرج الترمذي في سننه عن ثابت بن الضحاك ، عن النبي ﷺ قال : «ليس على العبد نذر فيما لا يملك ، ولا عن المؤمن كقاتله ، ومن قذف مؤمناً بكفر فهو كقاتله». (٥)

٧. أخرج ابو داود عن أسامة بن زيد قال : بعثنا رسول الله ﷺ

-
١. صحيح مسلم : ١ / ٥٦ ، باب «من قال لأخيه المسلم يا كافر» من كتاب الإيمان.
 ٢. صحيح مسلم : ١ / ٥٧ ، باب «من قال لأخيه المسلم يا كافر» من كتاب الإيمان ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده : ٢ / ٢٢ و ٦٠ و ١٤٢ ؛ وأخرجه الترمذي في سننه : ٥ / ٢٢ برقم ٢٦٣٧ ، كتاب الإيمان.
 ٣. النساء / ٤٨.
 ٤. صحيح البخاري : ١ / ١١ ، باب «المعاصي من أمر الجاهلية» من كتاب الإيمان.
 ٥. سنن الترمذي : ٥ / ٢٢ برقم ٢٦٣٦ ، كتاب الإيمان.

سرية إلى الحرقات ، فنذروا بنا فهربوا فأدركنا رجلاً فلما غشيناها قال : لا إله إلا الله ، فضربناه حتى قتلناه فذكرته للنبي ﷺ فقال : «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال : قلت : يا رسول الله ، إنما قالها مخافة السلاح والقتل ، فقال : «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا؟ من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال : فما زال يقولها حتى وددت أني لم أسلم إلا يومئذ. (١)

٨. لما خاطب ذو الخويصرة الرسول الأعظم بقوله : اعدل ، ثارت ثورة من كان في المجلس ، منهم خالد بن الوليد قال : يا رسول الله الا أضرب عنقه؟ فقال رسول الله ﷺ : «لا ، فلعله يكون يصلي» فقال : إنه رب مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، فقال رسول الله ﷺ : «إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم». (٢)

وعلى ضوء هذه الأحاديث المتضافرة والكلمات المضيفة عن الرسول ﷺ وعلمائنا السابقين المقتفين أثره يعلم أنّ تكفير مسلم ليس بالأمر الهين بل هو من الموبقات ، قال سبحانه : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٣).

١. سنن أبي داود : ٣ / ٤٥ برقم ٢٦٤٣ ؛ صحيح البخاري : ٥ / ١٤٤ ، باب بعث النبي اسامة بن زيد إلى الحرقات من كتاب المغازي.

٢. صحيح البخاري : ٥ / ١٦٤ ، باب بعث علي وخالد بن الوليد من كتاب المغازي.

٣. آل عمران / ١٠٥.

لم يزل المسلمون منذ قرون غرضاً لأهداف المستعمرين ومخططاتهم في بث الفرقة بين صفوفهم وجعلهم فرقاً وأما متناحرة ينهش بعضهم بعضاً ، وكأنهم ليسوا من أمة واحدة كل ذلك ليكونوا فريسة سائغة للمستعمرين. وبالتالي ينهبوا ثرواتهم ويقضوا على عقيدتهم وثقافتهم الإسلامية بشتى الوسائل ، ولأجل ذلك نرى أنه ربما يُشعلون نيران الفتن لأجل مسائل فقهية لا تَمَسُّ إلى العقيدة بصلة فيكفر بعضهم بعضاً مع أن المسائل الفقهية لم تنزل مورد خلاف ونقاش بين الفقهاء ، فمثلاً :

في مسألة قبض اليد اليسرى باليمينى أقوال فمن قائل بالاستحباب ، إلى آخر قائل بالكراهة ، إلى ثالث قائل بالتحريم. فلكل مجتهد رأيه فلا يجوز لفقيه أن يكفر فقيهاً أو اتباعه في مسألة القبض ، وقس على ذلك مسائل كثيرة تعد من الأحكام وللاجتهاد فيها مجال واسع.

ونظير ذلك بعض المسائل العقائدية التي ليست من ضروريات الإسلام بل للعقل والاستدلال دور في تحقيقها ، مثلاً :

عصمة الأنبياء قبل البعثة أو بعدها ، أو حدوث القرآن وقدمه ، أو صفاته تعالى عين ذاته أو زائد عليها ، فليست هذه المسائل محور التوحيد والشرك والإيمان والكفر ولكل محقق ، عقيدته ودليله ولا يجوز لآخر تكفيره ، ويكفي في ذلك ، الاعتقاد بما جاء به النبي إذا لم يكن من أهل التحقيق.

وبما ذكرنا يعلم أنّ تكفير طائفة ، طائفة أخرى لمسائل فقهية أو عقائدية لم يثبت كونها من ضروريات الدين ، أمر محذور وزلة لا تغتفر وخدمة للاستعمار الغاشم لا غير .
ونحن لا نريد الإطالة في الكلام وتكثير الأمثلة ، وتكفي في الاطلاع دراسة وضع المسلمين وتشتتهم ضمن اختلاف بعضهم مع بعض في فروع فقهية أو عقائدية ليست من الضروريات .

الفصل الثاني

التوحيد ، مراتبه وأقسامه

التوحيد ونبذ الشرك من أهمّ المسائل العقائدية التي تصدّرت المفاهيم والتعاليم السماوية على الإطلاق ، ويعدّ أساساً لسائر المعارف الإلهية التي جاء بها رسل الله في كتبهم وكلماتهم.

وبما أنّ للتوحيد مراتب بينها علماء الإسلام في كتبهم العقائدية نأتي بها على سبيل الإجمال ونردف كلّ قسم منها بآية أو آيات قرآنية ثمّ نبحث بأسهاب عن التوحيد في العبادة الذي هو آخر مراتبه.

فنقول : إنّ للتوحيد أقساماً :

الأول : التوحيد في الذات

والمراد منه هو أنّه سبحانه واحد لا نظير له ، فرد لا مثيل له ، بل يمتنع أن يكون له نظير أو مثيل ، قال سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .^(١)

١ . الشورى : ١١ .

وقال سبحانه : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. (١)

الثاني : التوحيد في الخالقية

والمراد أنه ليس في صحيفة الوجود خالق غير الله سبحانه ، ولا مؤثر سواه ، وإن ما في الكون من السماوات والأرض والجبال والبحار والعناصر والمعادن والنباتات والأشجار فهو مخلوق لله سبحانه ، فوجودها وأفعالها وآثارها كلها مخلوقة لله تبارك وتعالى . فالشمس وحرارتها ، والقمر وإنارته ، والنار وإحراقه وغير ذلك من الفواعل والأسباب كلها مخلوقة لله تبارك وتعالى مع آثارها ومسبباتها ، قال سبحانه : ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٢) . وقال سبحانه : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾. (٤) لكن جرت مشيئته على خلق الأشياء عن طريق أسبابها فكون العالم كله مخلوقاً لله سبحانه ليس بمعنى إنكار علاقة السببية ، كما سيوافيك .

١ . الاخلاص : ١ - ٤ .

٢ . الرعد : ١٦ .

٣ . الزمر : ٦٢ .

٤ . الأنعام : ١٠٢ .

الثالث : التوحيد في الربوبية

والمراد منه انّ للكون مدبراً واحداً متصرفاً كذلك لا يشاركه في التدبير شيء فهو سبحانه المدير الوحيد للكون على الإطلاق ، قال سبحانه : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾^(١) وقال سبحانه : ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾^(٢).

تجد أنّه سبحانه يذكر بعد خلق السماوات والأرض ، تدبير أمر الخلقة ، وربوبيّتها فيحصره في ذاته فلا مدبّر ولا ربّ إلّا هو ، فيكون الخالق هو الموجد ، والرب والمدير لأمر الخلقة ودوامها واستمرارها.

نعم ثمة سؤال وهو أنّه إذا لم يكن مدبر سواه فما معنى قوله سبحانه : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾^(٣) أو قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾^(٤) فإنّ الحفظة جمع «الحافظ» وهم الذين

١. يونس : ٣.

٢. الرعد : ٢.

٣. النازعات : ٥.

٤. الأنعام : ٦١.

يحفظون العباد ويدبرون شؤون حياتهم ، أفهناك تناف بين هذا الإثبات والحصص السابق؟! والجواب أنّ من كان ملماً بحقائق القرآن وعارفاً بلسانه يقف على عدم وجود أيّ تناقض وتناف بين ذلك النفي وهذا الإثبات ، وذلك لأنّ الهدف من حصر التدبير بالله سبحانه هو حصصه به على وجه الاستقلال ، أي من يدبر بنفسه غير معتمد على شيء. وأما المثبت لتدبير غيره ، فيراد منه أنّه يدبر بأمره وإذنه وحوله وقوته على النحو التبعية فكل مدبر في الكون من ملك وغيره فهو مظهر أمره ومنفذ إرادته.

وليس هذا بعزيز في القرآن ترى أنّه سبحانه ينسب فعلاً لنفسه وفي الوقت نفسه ينسبه لشخص آخر ، ولا تناقض ، لاختلاف النسبتين في الاستقلال والتبعية ، قال سبحانه : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ ^(١) وقال : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾. ^(٢)

فالتوفي على وجه الاستقلال هو فعله سبحانه ، وأما التوفي بحوله وقدرته وإرادته وأمره فهو فعل الرسل.

وبعبارة أخرى : هناك فعل واحد وهو التوفي ، يُنسب إلى الله بنحو

١. الزمر : ٤٢.

٢. الأنعام : ٦١.

وإلى رسله بنحو آخر ، دون أيّ تناف وتنافر بين هذين النسبتين.

ونظيره قوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾^(١) وفي الوقت نفسه يعتبر الملائكة كتّبة الأعمال ويقول : ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾^(٢).

وبذلك تقف على معنى التوحيد في التدبير والتأثير ، وليس معناه خلوّ كلّ موجود من التأثير وإنّ آثار الأسباب تفاض من الله سبحانه بلا واسطة ، بل معناه أنّ الآثار والمسببات ، للأسباب نفسها ، فالشمس مضيئة ، والقمر منير والنار محرقة حقيقة ، ولكن بجعل منه سبحانه ، فالجميع من مظاهر أمره وإرادته.

ومن زعم أنّ معنى التوحيد في الربوبية هو نفي الآثار عن الأسباب فقد نازع وجدانه ، كما نازع الوحي المبين حيث إنّّه يثبت الأثر الطبيعي لكلّ سبب وفي الوقت نفسه يربطهما بالله سبحانه ، قال : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

تجد أنّ الوحي اعترف بسببية الماء لخروج الثمرات الطيّبة وليست

١. النساء : ٨١.

٢. الزخرف : ٨٠.

٣. البقرة : ٢٢.

هذه الآية وحيدة في هذا الباب ، بل في القرآن الكريم نماذج من هذا النوع ، قال سبحانه : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١).

فتستدل الآية على أن تدبيره سبحانه فوق تدبير الفواعل الطبيعية ، وذلك بشهادة أن الجنات تثمر أثماراً مختلفة مع وحدة الشرائط والظروف المحيطة بها من وحدة الماء والأرض ، وهذا يدل على أن وراء الأمور الطبيعية والأسباب المادية مدبراً فوقها ، وعلى الرغم من هذا الاعتراف إلا أنه لا ينفي تأثير العوامل الطبيعية من دون أن يراها كافية في خلق هذا التنوع. هذا هو منطق القرآن في التوحيد والتدبير والربوبية ، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى الكتب العقائدية.

الرابع : التوحيد في التشريع والتقنين

والمراد منه أن التشريع والتقنين للإنسان حق مختص بالله تبارك وتعالى فهو المشرع الوحيد للمجتمع الإنساني ولا يحق لأحد التقنين. قال سبحانه : ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٢) والمراد من

١. الرعد : ٤ .

٢. يوسف : ٤٠ .

حصر الحاكمية بالله هو حصر الحاكمية التشريعية ، فالآية تهدف إلى أنه لا يحق لأحد أن يأمر وينهى ويحرم ويحلّ سوى الله سبحانه ولأجل أن المراد من الحكم المختصّ بالله سبحانه ، هو التشريع أردفه بقوله : ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فالمراد من الأمر هنا هو الأمر التشريعي . وقال سبحانه : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١) فالآية تقسّم القوانين إلى : إلهية وجاهلية ، وبما أن ما كان من صنع الفكر البشري ليس إلهياً فيكون حكماً جاهلياً البتة .

الخامس : التوحيد في الطاعة

والمراد أنه لا يجب طاعة سوى الله تعالى ، فهو وحده يجب أن يُطاع وأن تمتثل أوامره ونواهيه ، وأما طاعة غيره فتجب بإذنه وأمره وإلا كانت محرمة موجبة للشرك في الطاعة ، قال سبحانه : ﴿وَمَا أُمُورُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (٢) والدين في الآية بمعنى الطاعة أي مخلصين الطاعة له ولا يطيعون غيره .

نعم تجب طاعة النبي ﷺ لأمره تعالى ، قال سبحانه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٣) .

١ . المائة / ٥٠ .

٢ . البينة / ٥ .

٣ . النساء / ٦٤ .

وفي آية أخرى عُدَّت طاعة النبي ﷺ من مظاهر طاعة الله وقال : ﴿وَمَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (١).

وعلى ضوء ذلك فإطاعة النبي ﷺ وأولي الأمر والوالدين إنما هو بإذنه وأمره سبحانه ولولاه لم تكن طاعتهم واجبة ، بل ولا الانقياد لأوامرهم جائزة فهناك مطاع بالذات وهو الله وغيره مطاع بالعرض وبأمره.

السادس : التوحيد في الحاكمية

والمراد منه أنّ الحكم على الناس حقّ مختص بالله تبارك وتعالى ، وحكومة الغير يجب أن تنتهي إلى الله تبارك وتعالى ، وذلك لأنّ الحكومة والحاكمية في المجتمع لا تنفك عن التصرف في النفوس والأموال وتحديد الحريات وذلك فرع ولاية ، للحاكم على المحكوم ولولاهما لعدّ التصرف عدواناً ومّا لا شكّ فيه أنّ الولاية لله المالك الحقيقي للإنسان الخالق له ، والمدبر له ، فلا يحقّ لأحد الإمرة على العباد إلّا بإذن منه سبحانه.

قال سبحانه : ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (٢). وقال سبحانه : ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ﴾ :

١. النساء : ٨٠.

٢. الأنعام : ٥٧.

الحاسبين ﴿١﴾ فالحكومة على الناس . سواء أكانت بصورة القضاء وفضّ الخصومة أو بصورة الإمرة . حقّ لله ، وغيره يمارسها بإذنه وإلاّ فيكون من قبيل حكم الطواغيت الذي شجبه القرآن في أكثر من آية.

السابع : التوحيد في العبادة

والمراد منه حصر العبادة بالله سبحانه وهذا هو الأصل المتفق عليه بين جميع طوائف المسلمين فلا يكون المسلم مسلماً إلاّ بعد الاعتراف بهذا الأصل ، وشعار المسلمين الذي يردّدونه كل يوم هو قوله سبحانه : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فعبادة غيره إشراك للغير مع الله في العبادة ، موجبة لخروج المسلم عن رتبة الإسلام.

وثمة أمر آخر وهو أنّ الضابطة الكلية . حصر العبادة بالله سبحانه . أمر لا غبار عليه ، لكن ثمة أموراً ربما يتصور أنّها من قبيل العبادة لغير الله ، وهذا ما سنتطرق إليه في الفصل الخامس ، وعلى ذلك فالنزاع ليس كبروياً بل صغروي ، أي لا نزاع لأحد في أنّه لا تجوز عبادة غيره ، وإتّما الكلام في أنّ هذا الأمر هل هو عبادة غيره سبحانه أو لا؟
مثلاً هل إقامة الاحتفالات في الأعياد والمهرجانات الدينية عبادة

لصاحب الذكرى ، أو هو تكريم وتبجيل وتعظيم له ، فلو كانت عبادة تكون محرمة وشركاً بلا شك ، ولو كان تكريماً وتعظيماً له يكون أمراً جائزاً بل مستحباً.
وهناك أمثلة أخرى ستمر عليك في الفصل الخامس ، غير أنّ المهم في المقام هو تفسير العبادة تفسيراً منطقياً وتحديدها تحديداً دقيقاً ليعلم من خلالها ما هو الداخل تحتها أو الخارج عنها.

وهذا هو الذي يتكفل بيانه الفصلان التاليان. ^(١)

١. أحدهما يتضمن بيان حقيقة العبادة ومقوماتها والآخر يتضمن تعريف العبادة ، والأول مقدمة للآخر.

الفصل الثالث :

حقيقة العبادة ومقوماتها

إنّ مفهوم العبادة من المفاهيم الواضحة كالماء والأرض لكن مع وضوح مفهومهما ربما يصعب التعبير عن حقيقتهما في قالب الألفاظ.

وهكذا مفهوم العبادة من المفاهيم الواضحة مفهوماً ومصادقاً ، ولكن ربما يصعب تحديدها تحديداً منطقيّاً يكون جامعاً للأفراد ومانعاً للأغيار مع وضوح مصاديقها غالباً.

فخضوع العاشق الولهان للمعشوق ، أو الجنديّ لرئيسه ، وشدُّ الرحال إلى زيارة كبار الشخصيات كلّها خضوع وخشوع وليست بعبادة.

والرجوع إلى اللغة لا يسمّن ولا يغني من جوع ، لأنّ أصحاب المعاجم لم يكونوا بصدد تحديد مفهوم العبادة حتى يُتخذ ما ذكره مقياساً وتعريفاً جامعاً ومانعاً. فأنهم فسروه بالخضوع والتذلّل وما شابههما.

يقول ابن منظور في لسان العرب : أصل العبودية الخضوع

والتذلل.

ويقول الراغب في المفردات : العبودية : التذلل ، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل.

وفي القاموس المحيط : العبادة : الطاعة.

إلى غير ذلك من التعاريف المتقاربة.

ومن المعلوم أنّ هذه تعاريف بالمعنى الأعم ، إذ ليس مجرد الخضوع والتذلل ولا غايتهما حداً للعبادة ، فإنّ حبّ العاشق للمعشوق لا يعد عبادة له ، كما أنّ تقبيل المصحف الكريم ليس عبادة للكتاب ، وأوضح من ذلك أنّ سجود الملائكة لآدم ، كقوله سبحانه : ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾^(١) وسجود النبي يعقوب عليه السلام وزوجه وأولاده ليوسف عليه السلام ، كما في قوله سبحانه : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾^(٢) لم يك عبادة للمسجود له ، أعني آدم أبا البشر ولا النبي يوسف عليه السلام .

وقد بلغ خضوع الصحابة للنبي ﷺ بمكان أنّهم كانوا يتركون بفضل وضوئه وشعر رأسه ، والإناء الذي يشرب منه الماء ، والمنبر الذي كان يجلس عليه ، ومن الواضح أنّ هذا النوع من التبرك غاية الخضوع منهم للنبي ﷺ ومع ذلك لم يبلغ حدّ العبادة ولم يصفهم أحد بأنهم

١. الحجر : ٣٠ . ٣١ .

٢. يوسف : ١٠٠ .

كانوا يألّهون النبي ﷺ ويعبدونه كلّ ذلك يجرّنا إلى أن نقوم بتعريفها حتى يعم جميع المصاديق ويمنع عن دخول غيرها.

والطريق الواضح لحلّ هذه المعضلة هو الوقوف على مقومات العبادة وإمعان النظر في العبادات الصحيحة التي قام بها المسلمون على مرّ العصور ، وفي العبادات والطقوس الباطلة التي كانت تُمارَس من قِبَل الوثنيين في الجاهلية والعصر الحاضر حتى نقف على الخصوصيات المكنونة في عمل الجميع والتي على ضوئها تطلق عليها عبادة ، إذاً فتحليل أعمالهم والوقوف على الميزات الموجودة فيها والخصوصيات الكامنة يوقفنا أولاً على حقيقة العبادة ، ويرسم لنا ثانياً تعريفاً جامعاً ومانعاً على نحو يكون مقياساً لتمييز العبادة عن غيرها.

وإليك تحليلها :

لا شكّ أنّ الجامع بين جميع أقسام العبادات صحيحها وباطلها هو الخضوع للمعبود سواء أكان مستحقاً له كالله سبحانه أو غير مستحق له كالأصنام والأوثان أو الأجرام السماوية من النجم والقمر والشمس والأرواح والمثل النورية المجردة ، فالعبادة في جميع تلك المراحل تتمتع بالخضوع وهو عمل قائم بالجوارح كالرأس واليد وغيرها ، فالعابد يخضع بكلّ جوارحه أو بشيء منها أمام المعبود وهذا أمر لا سترة فيه.

ولكن هناك خصوصية أخرى موجودة في الجميع وهو أمر قائم

بالضمير والقلب ولعلّه الأساس لإضفاء العبادة على العمل الجارحي ، وهي عبارة عن اعتقاد خاص بالمعبود الذي يكون مبدأً للخضوع الظاهري.

فالأوجب علينا بيان تلك الخصوصية الموجودة في جميع الأقسام وإليك التوضيح :
 أمّا الموحدون الذين يعبدون الله تبارك وتعالى ، فخضوعهم نابع عن اعتقادهم بأنّه خالق للكون والإنسان ، والمدبر للعالم الذي بيده كلّ شيء في الدنيا والآخرة ، وليس هناك أي خالق ومدبر ومالك لمصالح العباد ومصائرهم في العاجل والآجل سواه.
 أمّا العاجل فيعتقدون أنّ الخلق والتدبير والاحياء والاماتة وانزال المطر والخصب والجذب وكلّ ما يعدّ ظاهرة طبيعية من فعله سبحانه لا من فعل غيره الذي لا يملك أي تأثير في مصير الإنسان.

أمّا الآجل فيعتقدون أنّ الشفاعة ومغفرة الذنوب وغيرهما من الأمور الأخروية بيده تعالى.

وعلى ضوء ذلك فالعبادة هو الخضوع النابع عن الاعتقاد بخالقيته ومدبريته وكون أزمة الأمور ومصير الإنسان في الدنيا والآخرة بيده.

هذا حال الموحدين وأمّا المشركون في عصر الرسالة وقبله وبعده فخضوعهم لمعبوداتهم كان نابغاً عن اعتقاد خاص يضادّ ذلك ، فاللازم

هو تحصيل ذلك الاعتقاد.

يظهر من بعض الآيات أنّ العرب في العصر الجاهلي كانوا موحدين في الخالقية ، قال تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾^(١) ولكنهم في الوقت نفسه كانوا مشركين في التدبير الذي نعبر عنه بالربوبية ، فكانوا يعتقدون بأرباب ، مكان الرب الواحد ، ولكل رب شأن في عالم الكون. ويدل على ذلك طائفة من الآيات نذكر بعضها :

١. أنّ الموحد يرى أنّ العزة بيد الله سبحانه ومنطقه ، قوله سبحانه : ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾^(٢).

ولكن المشرك في عصر الرسالة كان يرى أنّ العزة بيد الأصنام والأوثان كما يحكي عن عقيدته قوله سبحانه : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾^(٣).
٢. أنّ الموحد يرى أنّ النصر بيد الله تبارك وتعالى ويردّد على لسانه ، قوله سبحانه : ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(٤).

ولكن المشرك في عصر الرسالة كان يعتقد بأنّ النصر بيد الآلهة

١. الزخرف : ٩.

٢. فاطر : ١٠.

٣. مريم : ٨١.

٤. آل عمران : ١٢٦.

والأرباب المزيفة ، قال سبحانه : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾^(١) .

٣. انّ الموحد يؤمن بأنّ أمر التدبير بيد الله ، قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾^(٢) . كما انّ بيده الجذب والخصب قال سبحانه : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(٣) .

ولكن المشرك كان يستمطر بالانواء بل يستمطر بالأصنام.

يقول ابن هشام في سيرته : كان عمرو بن لُحيّ أوّل من أدخل الوثنية إلى مكة وضواحيها ، فقد رأى في مآب من أرض البلقاء من بقاع الشام أناساً يعبدون الأوثان وعندما سألهم عمّا يفعلون قائلاً : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟

قالوا : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطونني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟

وهكذا استحسن طريقتهم واصطحب معه إلى مكة صنماً كبيراً يقال له «هبل» ووضعوه على سطح الكعبة المشرفة ودعا

١. يس : ٧٤ .

٢. لقمان : ٣٤ .

٣. البقرة : ١٥٥ .

الناس إلى عبادته. ^(١)

٤. ثم إنَّ الموحد يرى أنَّ غفران الذنوب والشفاعة بيده سبحانه فليس هناك غافر للذنوب إلا الله سبحانه ولا شفيع إلا بإذنه ، يقول سبحانه : ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ^(٢) وقوله سبحانه : ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .
^(٣) وقال سبحانه : ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ ^(٤) .

وأما المشرك فكان يعتقد بأنَّ الشفاعة بيد الآلهة والأرباب المزيفة ، والشاهد عليه أنَّ الآيات الماضية نزلت رداً على عقيدة المشركين حيث كانوا يعتقدون بأنَّهم مالكون مقام الشفاعة بتفويض من الله سبحانه ولأجل ذلك يؤكد على نفي تلك العقيدة في آيات أخرى ، ويقول : ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ ^(٥) وقال : ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ ^(٦) وقال : ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ ^(٧) .

١. انظر السيرة النبوية : ١ / ٧٦ . ٧٧ .

٢. آل عمران : ١٣٥ .

٣. الزمر : ٤٤ .

٤. الزخرف : ٨٦ .

٥. مريم : ٨٧ .

٦. سبأ : ٢٣ .

٧. (٧) . الزخرف : ٨٦ .

كما يرى أنّ مغفرة الذنوب بيد الآلهة والشاهد على ذلك (وصفه سبحانه) نفسه بأنه «غافر الذنب».^(١)

٥. أنّ الموحد يرى مصيره عاجلاً وآجلاً بيده سبحانه : وهذا هو إبراهيم الخليل رائد التوحيد يعلن عقيدته أمام الملأ من المشركين ، يقول سبحانه حاكياً عنه : ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ* وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ* وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ* وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ*﴾.^(٢)

ولكن المشرك يرى كلّ ذلك أو أكثره بيد آلهته وأربابه ، كما يعرب عنه قوله سبحانه : ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾^(٣) ويقول تعالى حاكياً عن لسان المشركين يوم الحشر عند ندمهم عن عبادة الآلهة ، ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ* إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.^(٤)

٦. أنّ الموحد يرى أمر التشريع والتحليل والتحريم بيده سبحانه ، ويقول : ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾^(٥).

ولكن المشرك يرى أنّ التشريع بيد الأحرار والرهبان ، قال

١. راجع غافر : ٣.

٢. الشعراء : ٧٨ - ٨١.

٣. البقرة : ١٦٥.

٤. الشعراء : ٩٧ - ٩٨.

٥. يوسف : ٤٠.

سبحانه : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ^(١) فقد كانوا على اعتقاد أنّ الأحبار والرهبان يملكون مقام التشريع فلهم أن يحلوا الحرام أو يحرموا الحلال بأخذ شيء من حطام الدنيا.

إلى غير ذلك مما يبين عقيدة المشركين في العصر الجاهلي ويكشف عن أنّ خضوع المشركين لم يكن خضوعاً مجرداً نابعاً عن الحب المجرد بل ناجماً عن عقيدة خاصة في الآلهة والأرباب ، والاعتقاد بأنّ أمر التدبير بعضه أو كلّه بيدهم وأنّ مصيرهم موكول إليهم. نعم لم تكن عقيدتهم في ربوبيتهم على درجة واحدة ، بل كانت تختلف حسب اختلاف الظروف والشرائط.

فطائفة منهم تعتقد بسعة ربوبية الأرباب والآلهة كما كان عليه المشركون في عصر إبراهيم حيث كانوا يعتقدون بربوبية النجم والقمر والشمس للموجودات الأرضية كما حكاه سبحانه عنهم في عدّة من الآيات ، قال سبحانه : ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ...﴾ ^(٢).

وطائفة أخرى تعتقد بضيق ربوبية تلك الآلهة وتخصها ببعض ما

١. التوبة : ٣١.

٢. الأنعام : ٧٥ - ٨٠.

يمتُّ إلى الإنسان بصلة كاختصاصهم بحق الشفاعة والمغفرة والعزة والنصرة في الحروب إلى غير ذلك ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتب الملل والنحل. ^(١)

والذي كان يجمع المشركين في معسكر واحد هو اعتقادهم بمالكية الآلهة شيئاً من الربوبية وإدارة الكون وحياة الإنسان.

ونلفت نظر القارئ إلى بعض النماذج ممّا أثر عن المشركين في مجال عقيدتهم.

قال زيد بن عمرو بن نوفل الذي ترك عبادة الأصنام قبل أن يبعث النبي ﷺ

حيث يحكي عن عقيدته في الجاهلية ويقول :

أرب واحد أم ألف ربّ أدين إذا تُقسّمت الأمور
عزّلت السّلات والعزى جميعاً كذلك يفصل الجلد الصبور
لأعزّي أدين ولا ابنتيها ولا صنم بني عمرو أزور
ويقول أيضاً :

إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه إله ولا ربّ يكون مدايناً ^(٢)

١. الشهرستاني : الملل والنحل : ٢ : ٢٤٤.

٢. الألوسي : بلوغ الأرب : ٢ : ٢٤٩.

هذه الأشعار وسائر الكلمات المروية قبل مبعث النبي تثبت أمراً واحداً ، وهو أنّ ألهتهم كانت تتمتع حسب عقيدتهم بقوة غيبية مالكة لها مؤثرة في الكون ومصير الإنسان ، وأنّ هؤلاء آلهة وأرباب والله سبحانه إله الآلهة وربّ الأرباب . ويمكن أن نتطرق إلى المواقف التي اتخذوها أمام أصنامهم وأوثانهم من خلال استعراض الآيات التي تندد بالمشرّكين وتشجب عملهم .

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ .^(١)
٢. ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ .^(٢)
٣. ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ .^(٣)
٤. ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ .^(٤)
٥. ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ .^(٥)

١. الأعراف : ١٩٤ .

٢. الإسراء : ٥٦ .

٣. يونس : ١٠٦ .

٤. فاطر : ١٤ .

٥. الملك : ٢٠ .

٦. ﴿إِمْ هُمْ آلهَةُ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْهَا يُصْحَبُونَ﴾.

(١) إلى غير ذلك من الآيات المنددة بعمل المشركين حيث تجد أنه سبحانه يرشدهم إلى

الحقيقة الناصعة ويبطل عقيدتهم المزيفة بالحجج التالية :

أ. انهم ﴿عِبَادَ امْتَالِكُمْ﴾ فلا ربوبية لهم كلاً أو بعضاً.

ب. ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ﴾ فلا ربوبية لهم حتى يكشفوا الضر عنكم.

ج. لا يَنْفَعُونَ وَلَا يَضُرُّونَ ، وَلَا يَسْمَعُونَ فكيف تعبدونهم؟

كل ذلك يكشف عن أنّ المخاطبين كانوا على اعتقاد راسخ بأنّ للآلهة قدرة غيبية

فوق الإنسان وأنّ زمام كشف الضر بأيديهم فينفعون ويضرّون.

إلى هنا تبين أنّ حقيقة العبادة قائمة بأمرين :

الأول : يرجع إلى جوارح الإنسان المشعرة بالتعظيم والخضوع.

الثاني : يرجع إلى عقيدة الخاضع في حقّ المخضوع له بنحو من الأنحاء من كونه

خالقاً أو رباً أو من بيده مصير الإنسان كلاً أو جزءاً فلا تتحقق مفهوم العبادة إلا بتحققهما.

نعم يبقى هنا سؤال وهو أنّ العرب في العصر الجاهلي لو كانوا

معتقدين بربوبية الآلهة ، فلماذا يحكي عنهم القرآن بأنّ عبادتهم كانت لأجل التقرب بعبادتهم إلى الله فقط لا غير ، قال سبحانه : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ .^(١)

حيث يحكي عنهم سبحانه قولهم : ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ أي يقولون : نحن لا نعبدهم مؤثرين في حياتنا ومصيرنا وإنما نعبدهم لتتقرب بعبادتهم إلى الله .
والجواب : أنّه لا شكّ حسب ما مرّ من الآيات أنّهم كانوا يتخذونهم آلهة وأرباباً وكانوا يستمطرون ويعتزون بهم إلى غير ذلك من صفات الآلهة ، ومع ذلك كيف يمكن ان تُحصر عبادتهم في طلب التقرب إلى الله ، وهذا يدلنا إلى القول بأنّهم كانوا يقولون في ألسنتهم ما ليس في قلوبهم ولذلك نرى أنّه سبحانه يقول في ذيل الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ مشيراً إلى أنّهم كاذبين في ذلك المدعى وإنما يعبدونهم لغايات دنيوية ، وهو اكتساب العزة والنصرة والخصب والنعمة والشفاء والشفاعة .

وحيث إنّّه طال الكلام في هذا الفصل الذي تناولنا فيه بيان مقومات العبادة نحيل تعريفها إلى الفصل اللاحق .

الفصل الرابع :

تعريف العبادة

إذا وقفت على مقومات العبادة ، فيكون من السهل تعريف العبادة تعريفاً منطقياً جامعاً للأفراد ومانعاً للأغيار بأحد التعاريف التالية :

التعريف الأول

العبادة هي الخضوع عن اعتقاد بالوهمية المعبود ، فمالم يكن القول والعمل ناشئين من الاعتقاد بالوهمية ، لا يكون الخضوع والتعظيم والتكريم عبادة. والذي يجب أن نلفت نظر القارئ إليه ، هو أنّ المراد من الوهمية ليست المعبودية كما هو الرائج في الألسن ، بل المراد منها الاعتقاد بكونه إله العالم وخالقه ومدبره وأنّ أزمة الأمور كلّها أو بعضها بيده ، فهذا هو المراد من الإله ، والوهمية ، فلفظ الإله كلي و (الله) لفظ الجلالة علم ، فليس بينهما فرق إلا بالكلية والجزئية.

والذي يدل على ذلك (الخضوع النابع عن الاعتقاد بالالوهية) أنّ بعض الآيات تأمر بعبادة الله وتنهى عن عبادة غيره مدلاً بأنّه لا إله غيره ، يقول : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ إِلَهَ غَيْرُهُ﴾^(١).

ومعنى ذلك أنّ الذي يستحق العبادة من كان إلهاً وليس هو إلا الله ، عندئذٍ كيف تعبدون ما ليس بآله حقيقة وإنما تدعون له الألوهية؟

وكيف تنبذون عبادة الله وهو الإله الذي يجب أن يعبد دون سواه؟ وقد وردت هذه الآية بنصها أو مضمونها في كثير من الآيات.^(٢)

فهذه التعابير تفيد أنّ العبادة هي ذلك الخضوع والتذلّل النابعين من الاعتقاد بالالوهية المعبود ، إذ نلاحظ . بجلاء . كيف استنكر القرآن على المشركين عبادة غير الله بأنّ هذه المعبودات ليست آلهة وأنّ العبادة من شؤون الألوهية . وحيث إنّ هذا الوصف لا يوجد إلا في الله سبحانه لذلك تجب عبادته دون سواه .

التعريف الثاني

العبادة هي الخضوع أمام من يعتقد أنّه ربّ يملك شأنًا من شؤون وجوده وحياته وشؤونه في آجله وعاجله .
سواء كان أمراً مادياً كالعزة والنصر ، أم معنوياً كمغفرة الذنوب .

١ . الأعراف : ٥٩ .

٢ . وللقارئ الكريم أن يراجع في ذلك الآيات التالية : الأعراف : ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ ؛ هود : ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤ ؛ الأنبياء : ٢٥ ؛ المؤمنون : ٢٣ ، ٣٢ ؛ طه : ١٤ .

والمقصود من الربّ ، هو المالك لشؤون الشيء ، المتكفل لتدبيره وتربيته ، ولذلك تكون العبودية في مقابل الربوبية.

ويدل على ذلك طائفة من الآيات التي تعلل الأمر بحصر العبادة في الله وحده بأنّه الربّ لا غير ، وإليك بعض هذه الآيات :

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾. (١)

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾. (٢)

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾. (٣)

وقد ورد مضمون هذه الآيات في آيات أخرى هي : يونس : ٣ ؛ الحجر : ٩٩ ؛ مريم : ٣٦ ، ٦٥ ؛ الزخرف : ٦٤ .

وعلى كلّ حال فإنّ أوضح دليل على هذا التفسير للفظ العبادة هو الآيات التي سبق ذكرها.

التعريف الثالث

العبادة هي الخضوع أمام من نعتقد أنّه إله العالم ، أو من فوض إليه أعماله كالخلق والرزق والإحياء والإماتة التي تعد من الأفعال الكونية أو التقنين والتشريع وحقّ الشفاعة والمغفرة التي تعد من

١ . المائة : ٧٢ .

٢ . الأنبياء : ٩٢ .

٣ . آل عمران : ٥١ .

الأفعال التشريعية.

إنّ الموحّد يعبد الله سبحانه بما أنّه قائم بهذه الأفعال ، من دون أن يفوّض شيئاً منها إلى مخلوقاته ، ولكنّ المشركين مع اعتقادهم بأنّ آلهتهم وأربابهم مخلوقون لله تبارك وتعالى ، لكن كانوا على اعتقاد أنّه فوّض إلى الآلهة أمور التكوين والتشريع كلّها أو بعضها ، فلذلك كانوا يستمطرون بالأنواء والأصنام ويطلبون الشفاعة منهم بتصور أنّهم مالكون لحقّ الشفاعة ، ويطلبون منهم النصرة والعزة في الحرب بزعم أنّ الأمر بيدهم وأنّه فوّض إليهم .

وعلى ضوء هذه التعاريف الثلاثة يظهر الفرق الجوهرى بين التوحيد في العبادة والشرك فيها ، فكلّ خضوع نابع عن اعتقاد خاص بإلهية المخضوع له وربوبيته أو تفويض الأمر إليه فهو عبادة للمخضوع له سواء كان ذلك الاعتقاد الخاص في حقّ المعبود حقّاً . كما في الله سبحانه . أو باطلاً كما في حقّ الأصنام . وعلى كلّ تقدير فالخضوع الناجم عن هذا النوع من الاعتقاد ، عبادة للمخضوع له .

وأما لو كان الخضوع مجرداً عن هذه العقيدة فهو تعظيم وتكريم ، وليس بعبادة ، ولا يكون الخاضع مشركاً ، ولا عمله موصوفاً بالشرك ، غاية الأمر ربما يكون حلالاً كما في الخضوع أمام الأنبياء والأولياء ومن وجب له حقّ بالتعليم والتربية ، وربما يكون حراماً كالسجود أمام النبي ﷺ والوليّ ﷺ وغيرها لا لأنّه عبادة للمسجود له ، بل لأنّه لا يجوز السجود لغيره سبحانه وإنّ السجود خضوع لا يليق بغيره .

ويمثل هذا البيان تمييز العبادة عن التعظيم ، فتقيل المصحف وضرائح الأنبياء وما يمت إليهم بصلة إذا كان فارغاً عن اعتقاد الألوهية والربوبية والتفويض فهو ليس عبادة للمخضوع له.

إذا عرفت تلك الضوابط فلنتناول بالبحث الموضوعات الخاصة التي ربما يتصور أنّها شرك وعبادة لغير الله أو أنّها بدعة دخلت في الدين أو حرام كسائر المحرمات ، ويأتي كلّ ذلك في ضمن الفصل الآتي.

الفصل الخامس :

تطبيقات

على ضوء تعريف العبادة

ينطوي هذا الفصل على مسائل صارت ذريعة للاختلاف والتشتت ، وهي لا تمس العقيدة بصلة ، وإنما هي مسائل فقهية تستنبط أحكامها من الكتاب والسنة وهذه المسائل هي كالتالي :

- ١ . زيارة القبور .
- ٢ . شد الرحال إلى زيارة قبر النبي ﷺ .
- ٣ . البناء على القبور .
- ٤ . بناء المساجد على القبور والصلاة فيها .
- ٥ . التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين وأقسامه .
- ٦ . انتفاع الموتى بأعمال الأحياء والنذر لهم .
- ٧ . التبرك بآثار الأنبياء والصالحين .
- ٨ . الاحتفال بميلاد النبي ﷺ .

٩. البكاء على الميت.
 ١٠. الحلف على الله بحق الأولياء.
 ١١. الحلف بغير الله سبحانه.
 ١٢. تسمية المواليد باضافة العبد إلى غير الله سبحانه.
- وإليك البحث فيها واحدة تلو الأخرى :

١

زيارة القبور (١)

إنَّ زيارة القبور تنطوي على آثار أخلاقية وتربوية هامة ، لأنَّ مشاهدة المقابر التي تضمُّ في طياتها مجموعة كبيرة من رفاة الذين عاشوا في هذه الحياة ، ثمَّ انتقلوا إلى الآخرة ، تؤدي إلى الحد من الطمع والحرص على الدنيا ، وربما يُغيِّر سلوك الإنسان فيترك الظلم والمنكر ويتوجه إلى الله والآخرة.

لذا يقول الرسول الأعظم ص : «زوروا القبور فإنَّها تذكركم بالآخرة». (٢)

نعم يستفاد من بعض الأحاديث أنَّ النبي ﷺ نهي يوماً عن زيارة القبور ثمَّ رخصها ، ولعلَّ النهي كان لملاك آخر ، وهو أنَّ أكثر الأموات . يومذاك . كانوا من المشركين ، فنهي النبي ﷺ عن زيارتهم ،

-
- ١ . أنَّ زيارة القبور من المسائل الفرعية الفقهية ، ولا تمتُّ إلى العقيدة الإسلامية بصله ، ولا يتَّهم القائل بجوازها بالشرك ، وهذه المسألة شأن سائر المسائل يرجع فيها إلى الكتاب والسنة حتى يعلم جوازها أو عدم جوازها.
 - ٢ . شفاء السقام : ١٠٧ .

ولما كثر المؤمنون بينهم رخصها بإذن الله عَزَّوَجَلَّ ، وقال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكر في الآخرة » .^(١)

وقالت عائشة : إن رسول الله رخص في زيارة القبور ، وقالت : إن النبي ﷺ قال : أمرني ربي أن آتي البقيع وأستغفر لهم . قلت : كيف أقول يا رسول الله ﷺ ؟ قال : قولي : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمؤمنات يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، أنا إن شاء الله بكم لاحقون .^(٢)

وجاء في الصحاح والمسانيد صور الزيارات التي زار بها النبي ﷺ البقيع . قال مؤلف كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» : زيارة القبور مندوبة للاتعاظ وتذكر الآخرة وتتأكد يوم الجمعة ، وينبغي للزائر الاشتغال بالدعاء والتضرع ، والاعتبار بالموتى ، وقراءة القرآن للميت فإن ذلك ينفع الميت على الأصح ، وبما ورد أن يقول الزائر عند رؤية القبور : «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» ولا فرق في الزيارة بين كون المقابر قريبة أو بعيدة^(٣) بل يندب السفر لزيارة الموتى خصوصاً مقابر الصالحين .

١ . سنن ابن ماجه : ١ / ١١٧ ، باب ما جاء في زيارة القبور .

٢ . لاحظ صحيح مسلم : ٢ / ٦٤ ، باب ما يقال عند دخول القبور .

٣ . إلا الحنابلة فقالوا إذا كانت القبور بعيدة فزيارتها مباحة لا مندوبة .

هذه كلمات فقهاء المذاهب الأربعة حول زيارة القبور. (١)

زيارة قبر النبي ﷺ

هذا كله حول زيارة قبور المسلمين ، وأما زيارة قبر النبي وأئمة الإسلام والشهداء والصالحين فلا شك أنّ لزيارتهم نتائج بناءة نشير إليها ، كما نشير إلى الأحاديث الواردة حول زيارة قبورهم ليكون البحث مرفقاً بالتحليل وجامعاً للدليل.

أما التحليل : أنّ زيارة مراقدة هذه الشخصيات هو نوع من الشكر والتقدير على تضحياتهم وإعلام للجيل الحاضر بأنّ هذا هو جزاء الذين يسلكون طريق الحق والهدى ، والفضيلة والدفاع عن المبدأ والعقيدة ، وهذا لا يدفعنا إلى زيارة قبورهم فحسب ، بل إلى إبقاء ذكرياتهم حية ساخنة ، والمحافظة على آثارهم وإقامة المهرجانات ، في ذكرى مواليدهم ، وعقد المجالس وإلقاء الخطب المفيدة في أيّام التحاقهم بالرفيق الأعلى ، وهذا شيء يدركه كلّ ذي مسكة.

ولأجل ذلك ترى أنّ الأمم الحية يتسابقون في زيارة مدفن رؤسائهم وشخصياتهم الذين ضحّوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل نجاة الشعب ، وإنقاذه من مخالب المستعمرين والظالمين ، ويقيمون المجالس لآحياء معالمهم ، دون أن يخطر ببال أحد أنّ هذه الأمور عبادة

١ . الفقه على المذاهب الأربعة : ١ / ٥٤٠ .

لهم ، فأين التعظيم للشخصيات من عبادتهم ؛ فإنّ التعظيم تقدير لجهودهم ، والعبادة تأليهم واتخاذهم أرباباً. أفهل هناك من يخلط بين الأمرين منّا أو من غيرنا؟! كلاً ، لا ، شريطة الإمعان في مقوّمات العبادة وتعريفها الماضيتين في الفصلين السابقين.

إذا وقفت على الآثار البتّة لزيارة مطلق القبور وزيارة قبور الأولياء والصالحين ، نذكر خصوص ما ورد من الروايات التي جاء فيها الحث على زيارة قبر النبي الأعظم ص.

أخرج أئمة المذاهب الأربعة وحفاظها في الصحاح والمسانيد أحاديث جمّة في زيارة قبر النبي ﷺ نذكر شطراً منها :

١. عن عبد الله بن عمر مرفوعاً : من زار قبري وجبت له شفاعتي.
٢. عن عبد الله بن عمر مرفوعاً : من جاءني زائراً لا تحمله إلّا زيارتي كان حقاً عليّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة.
٣. عن عبد الله بن عمر مرفوعاً : من حجّ فزار قبري بعد وفاتي كمن زارني في حياتي.
٤. عن عبد الله بن عمر مرفوعاً : من حجّ البيت ولم يزرني فقد جفاني.
٥. عن عمر مرفوعاً : من زار قبري أو من زارني كنت له شفيعاً أو شهيداً.

٦. عن حاتم بن أبي بلتعه مرفوعاً : من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي.
 ٧. عن أبي هريرة مرفوعاً : من زارني بعد موتي فكأنما زارني وأنا حيّ ، ومن زارني كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة.
 ٨. عن أنس بن مالك مرفوعاً : من زارني في المدينة محتسباً كنت له شفيعاً.
 ٩. عن أنس بن مالك : من زارني ميتاً فكأنما زارني حياً ، ومن زار قبري وجبت له شفاعتي يوم القيامة ، وما من أحد من أمتي له سعة ثمّ لم يزرنني فليس له عذر.
 ١٠. عن ابن عباس مرفوعاً : من زارني في مماتي كمن زارني في حياتي ، ومن زارني حتى ينتهي إلى قبري كنت له يوم القيامة شهيداً ، أو قال شفيعاً.
- فهذه أحاديث عشرة أخرجها الحفاظ من المحدثين ، وقد جمع أسانيدنا وطرقها وصححها تقي الدين السبكي (المتوفى سنة ٧٥٦ هـ) في كتاب شفاء السقام في زيارة خير الأنام فمن أراد التفصيل فليرجع إليه. ^(١)

١. شفاء السقام في زيارة خير الأنام ، الباب الأوّل في الأحاديث الواردة في زيارته ؛ ولاحظ أيضاً وفاء الوفاء بأحوال دار المصطفى : ٤ / ١٣٣٦.

ونظم الشيخ شعيب الحريفيش في «الروض الفائق» هذا المعنى في قصيدة مطلعها :

من زار قبر محمد	نال الشـفاعـة في غـد
بالله ذكر ذكره	وحديثه يا منشد
واجعل صلاتك دائماً	جهداً عليه تهتدي
فهو الرسول المصطفى	ذو الجود والكف الندي
وهو المشفق في الورى	من هول يوم الموعد
والحوض مخصص به	في الحشر عذب المورد
صلى عليه ربنا	مالاح نجم الفرق ^(١)

١ . الروض الفائق : ٢ / ٢٣٨ .

شدّ الرحال إلى زيارة قبر النبي ﷺ

كان الكلام في استحباب زيارة النبي ﷺ للحاضر في المدينة ، وأما استحباب السفر للغائب عنها فيدل عليه أمور :

الأوّل : ما ورد في الأحاديث من الحث على زيارة النبي ﷺ ، فاتها بين صريح في الغائب أو مطلق يعمّ المقيم والمسافر والحاضر والغائب.

فمن القسم الأوّل ما رواه عبد الله بن عمر ، عن النبي ﷺ انه قال :
من جاءني زائراً لا تحمله إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون له شفيعاً يوم القيامة.
فهذا صريح في الغائب وغيره.

الثاني : سيرة النبي ﷺ فإنه كان يشدّ الرحال إلى زيارة قبور شهداء أحد.
أخرج أبو داود عن ربيعة . يعني ابن الهدير . عن طلحة بن عبيد الله ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ يريد قبور الشهداء حتى

إذا أشرنا على حرّة واقم^(١) فلما تدلّينا منها وإذاً بقبور بمحنية^(٢) ، قال : قلنا يا رسول الله : أقبور اخواننا هذه .

قال : قبور أصحابنا ، فلما جئنا قبور الشهداء ، قال : هذه قبور إخواننا .^(٣)

الثالث : إطباق السلف والخلف على شدّ الرحال إلى زيارة النبي ﷺ ، لأنّ الناس لم يزلوا في كلّ عام إذا قضاوا الحج يتوجهون إلى زيارته ومنهم من يفعل ذلك قبل الحج . قال السبكي : هكذا شاهدناه وشاهده من قبلنا وحكاها العلماء عن الأعصار القديمة ... وكلّهم يقصدون ذلك ويعرجون إليه وإن لم يكن طريقهم ، ويقطعون فيه مسافة بعيدة وينفقون فيه الأموال ، ويبدلون فيه المهج ، معتقدين أنّ ذلك قرينة وطاعة ، وإطباق هذا الجمع العظيم من مشارق الأرض ومغاربها على مرّ السنين وفيهم العلماء والصلحاء وغيرهم يستحيل أن يكون خطأ وكلّهم يفعلون ذلك على وجه التقرب به إلى الله عزّ وجلّ ، ومن تأخّر عنه من المسلمين فإنّما يتأخّر بعجز أو تعويق المقادير مع تأسفه عليه وودّه لو تيسّر له ، ومن ادّعى أنّ هذا الجمع العظيم مجمعون على خطأ فهو المخطئ .

١ . الحرّة : الأرض ذات الحجارة ، واقم : اطم من اطام المدينة وإليه تنسب الحرّة .

٢ . المحنية : انعطاف الوادي .

٣ . سنن أبي داود : ٢ / ٢١٨ برقم ٢٠٤٣ ، آخر كتاب الحج .

وما ربما يقال من أنّ سفرهم إلى المدينة لأجل قصد عبادة أخرى وهو الصلاة في المسجد ، باطل جداً ، فإنّ المنازعة فيما يقصده الناس مكابرة في أمر البديهة ، فمن عرف الناس ، عرف أنّهم يقصدون بسفرهم الزيارة من حين يعرجون إلى طريق المدينة ، ولا يخطر غير الزيارة من القربات إلّا ببال قليل منهم ، ولهذا قل القاصدون إلى البيت المقدس مع تيسر إتيانه ، وإن كان في الصلاة فيه من الفضل ما قد عرف ، فالمقصود الأعظم في المدينة ، الزيارة كما أنّ المقصود الأعظم في مكة ، الحج أو العمرة وهو المقصود ، وصاحب هذا السؤال إن شكّ في نفسه فليسأل كلّ من توجه إلى المدينة ما قصد بذلك؟^(١)

الرابع : أنّه إذا كانت الزيارة قرينة وأمرّاً مستحبّاً على الوجه العام أو الخاص ، فالسفر وسيلة القرينة ، والوسائل معتبرة بالمقاصد فيجوز قطعاً.

الخامس : ما نقله المؤرّخون عن بعض الصحابة والتابعين في هذا المجال.

١. قال ابن عساكر : إنّ بلالاً رأى في منامه النبي ﷺ وهو يقول له : ما هذه الجفوة يا بلال ، أما آن لك أن تزورني يا بلال؟ فانتبه حزناً ، وجلاً خائفاً ، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبي ﷺ ، فجعل

١. شفاء السقام في زيارة خير الأنام لتقي الدين السبكي : ٨٥ - ٨٦ ، ط بولاق مصر ، وانظر الطبعة الرابعة : ٢١١ - ٢١٢ بتلخيص.

يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه ، وأقبل الحسن والحسين . رضي الله عنهما . فجعل يضمّهما ويقبلهما فقالا له يا بلال : نشتهي نسمع أذانك الذي كنت تؤذن به لرسول الله ﷺ ، في السحر ففعل ، فعلا سطح المسجد ، فوقف موقفه الذي كان يقف فيه ، فلما أن قال : «الله أكبر . الله أكبر» ارتجت المدينة ، فلما أن قال : «أشهد أن لا إله إلا الله» ازدادت رجتها ، فلما أن قال : «أشهد أن محمداً رسول الله» خرجت العواتق من خدورهن فقالوا : أبعث رسول الله ﷺ! فما رئي يوم أكثر باكياً ولا باكية بعد رسول الله من ذلك اليوم. (١)

٢. أن عمر بن عبد العزيز كان يبعث بالرسول قاصداً من الشام إلى المدينة ليقري النبي السلام ثم يرجع. (٢)

قال السبكي : فسفر بلال في زمن صدر الصحابة ، ورسول عمر بن عبد العزيز في زمن صدر التابعين من الشام إلى المدينة ، لم يكن إلا للزيارة والسلام على النبي ولم يكن الباعث على السفر غير ذلك لا من أمر الدنيا ولا من أمر الدين ، لا من قصد المسجد ولا من غيره. (٣)

٣. إن عمر لما صالح أهل بيت المقدس وقدم عليه كعب الأحبار وأسلم وفرح عمر بإسلامه ، قال عمر له : هل لك أن تسير معي

١. تاريخ ابن عساكر : ٧ / ١٣٧ في ترجمة إبراهيم بن محمد ، برقم ٤٩٣ .

٢. شفاء السقام ، ص ١٤٢ . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان كما نقله في الصارم المنكي : ٢٤٦ ، لاحظ تعليقه شفاء السقام .

٣. شفاء السقام : ١٤٣ ، ط الرابعة .

إلى المدينة وتزور قبر النبي وتتمتع بزيارته؟ فقال لعمر : أنا أفعل ذلك ، ولما قدم عمر المدينة أول ما بدأ بالمسجد وسلم على رسول الله. ^(١)

٤. ذكر ابن عساكر في تاريخه ، وابن الجوزي في «مثير الغرام الساكن» ، بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالي قال : دخلت المدينة ، فأتيت قبر النبي ﷺ وزرته وسلمت بجذائه ، فجاءه أعرابي فزاره ، ثم قال : يا خير الرسل انّ الله أنزل عليك كتاباً صادقاً ، قال فيه : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾. ^(٢)

وإني جئتكَ مستغفراً ربّك ذنوبي ، مستشفعاً بك إلى الله ثمّ بكى وأنشأ يقول :
يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم
وقد ذيله أبو الطيب أحمد بن عبد العزيز بأبيات وقال :
وفيه شمس التقى والدين قد غربت من بعد ما أشرقت من نورها الظلم
حاشا لوجهك أن يبلى وقد هديت في الشرق والغرب من أنواره الأمام ^(٣)

١. فتوح الشام : ١ / ١٤٨ ، باب فتح القدس.

٢. النساء : ٦٤ .

٣. شفاء السقام : ١٥١ . ١٥٢

سؤال واجابة

وثمة سؤال وهو أنه إذا كان شد الرحال إلى زيارة القبور وبالأخص زيارة قبر النبي ﷺ جائزاً ، فما معنى هذا الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه ، وهو لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى؟
والجواب أولاً : أنّ هذا الحديث وإن أخرجه مسلم ، لكنّه معارض بفعل النبي ﷺ حيث إنّه كان يشد الرحال إلى مساجد غير هذه الثلاثة.
فقد أخرج الشيخان في صحيحهما أنّ النبي ﷺ كان يأتي مسجد قبا راكباً وماشيّاً فيصلّي فيه. (١)

فكيف يجتمع هذا الحديث مع حديث النهي الذي لسانه آب عن التخصيص ، وهذا يدل على أنّ الحديث الأول إمّا غير صحيح وعلى فرض صحته نقل محرّفاً.
والدليل على التحريف أنّه نقل بوجه آخر أيضاً ، وهو إمّا يسافر إلى ثلاثة مساجد : مسجد الكعبة ، ومسجدي ، ومسجد إيلياء.
وأيضاً بصورة ثالثة تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد. (٢)

١. صحيح مسلم : ٤ / ١٢٧ ، صحيح البخاري : ٢ / ١٧٦.

٢. أورد مسلم هذه الأحاديث في صحيحه : ٤ : ١٢٦ ، باب لا تشد الرحال من كتاب الحج وكذلك النسائي في سننه المطبوع مع شرح السيوطي : ٢ / ٣٧ . ٣٨ ، وقد ذكر السبكي صوراً أخرى للحديث هي أضعف دلالة على مقصود المستدل لاحظ شفاء السقام : ٩٨.

فعلى هذين الصورتين ليس هناك نهي عن شدّ الرحال إلى غير الثلاثة خصوصاً الصورة الثالثة ، وأقصى ما فيها الدعوة إلى السفر إلى هذه الثلاثة.

وثانياً : نفترض أنّ الصحيح هو الصورة الأولى لكن المستثنى منه بقرينة المستثنى محذوف وهو لفظ المسجد ، فيكون معناه لا تشدّ الرحال إلى مسجد من المساجد إلّا إلى هذه المساجد الثلاثة ، فلو دلّ فإنّما يدل على النهي على شدّ الرحال إلى مسجد سوى المساجد الثلاثة ، وأمّا السفر إلى الأماكن الأخرى فالحديث ساكت عنه غير متعرض لشيء من أحكامه ، فإنّ النفي والإثبات يتوجهان إلى السفر إلى المسجد لا إلى الأمكنة الأخرى ، كزيارة النبي ومشاهد الشهداء ومراقد الأولياء.

وثالثاً : أنّ الحديث لا يدل . حتى . على حرمة السفر إلى مسجد غير هذه الثلاثة ، وإنّما هو إرشاد إلى عدم الجدوى في السفر إلى غيرها ، وذلك كما قاله الإمام الغزالي : لأنّ سائر المساجد متماثلة في الفضيلة بعد هذه المساجد فلا وجه لشدّ الرحال إلى غيرها وإنّما يشدّ الرحال إذا كان هناك تفاوت في الفضيلة. ^(١)

وأمّا شدّ الرحال إلى زيارة أئمة أهل البيت عليهم السلام أو الشهداء فيعلم ذلك ممّا قد أوردناه من الأحاديث ، فإذا خرج النبي صلى الله عليه وآله من المدينة لزيارة قبورة الشهداء فأئمة أهل البيت أئمة الشهداء تجوز

١ . احياء علوم الدين للإمام الغزالي : ٢ / ٢٤٧ .

زيارتهم بطريق أولى ، أنّ الإمام أمير المؤمنين من أفضل الشهداء ، والحسين بن علي أبو الشهداء . فسلام الله عليهم يوم ولدوا ويوم استشهدوا ويوم يبعثون أحياء . وعلى كلّ حال فشذّ الرجال ، مسألة فقهية لا صلة لها بالمسائل العقائدية ولا بالشرك ولكلّ مجتهد دليله .

البناء على القبور

المراد من القبور في العنوان هو قبور الأنبياء والشهداء والأئمة الأولياء الذين لهم مكانة عالية في قلوب المؤمنين ، فهل هو أمر جائز أو لا؟

وهذه المسألة كالمسألتين السابقتين لا تمت إلى العقيدة الإسلامية بصلة حتى تكون ملاكاً للتوحيد والشرك ، وإنما هي من المسائل الفقهية التي يدور أمرها بين الإباحة والكراهة والاستحباب وغيرها.

ولا يصحّ لمسلم واع أن يتخذ تلك المسألة ذريعة للشرك والتكفير ، فكم من مسائل فقهية اختلفت فيها كلمة الفقهاء ، ومن حسن الحظ لم يختلف في هذه المسألة فقهاء الأئمة الأربعة ولا فقهاء المذهب الإمامي ودليلهم على جواز البناء على قبور تلك الشخصيات عبارة عن سيرة المسلمين منذ رحيل النبي ﷺ إلى يومنا هذا.

أ. وارى المسلمون جسد النبي ﷺ في بيته المسقف وحرصوا على بذل المزيد من العناية بحجرته الشريفة بشتى الأساليب ، وقد جاء

ذكرها في الكتب التي ألّفت في تاريخ المدينة لا سيما كتاب وفاء الوفاء للعلامة السمهودي.^(١)

وشيّد البناء الموجود عام ١٢٧٠ هـ وهو بمحمد الله قائم لم يمسه سوء ، وسوف يبقى بفضل الله تبارك وتعالى محفوظاً مصوناً عن الاندثار ، فلو كان البناء على القبور أمراً حراماً لدفنه المسلمون في مكان واسع لا سقف فيه.

ب. أنّ البناء على القبور كانت سيرة سائدة بين المسلمين من عصر الصحابة إلى يومنا هذا ، وهذه هي كتب الرّحلات تذكر لنا وصف القبور الموجودة في المدينة التي كانت عليها قباب وعلى قبورهم صخرة فيها اسمائهم ونحن نذكر من ذلك نزراً يسيراً :

١. يقول المسعودي (المتوفى ٤٤٥ هـ) حول المشاهد والقباب في البقيع : وعلى قبورهم في هذا الموضع من البقيع ، رخامة مكتوب عليها بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله مبيد الأمم ومحبي الرمم وهذا قبر فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين ، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب ، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، ومحمد بن علي ، وجعفر بن محمد.^(٢)

٢. وذكر السبط ابن الجوزي (المتوفى عام ٦٥٤ هـ) في تذكرة

١. وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى : ٢ / ٤٥٨ ، الفصل التاسع.

٢. مروج الذهب ومعادن الجوهر : ٢ / ٢٨٨.

الخواص ص ٣١١ نظير ذلك.

٣. كما وصف محمد بن أبي بكر التلمساني المدينة الطيبة وبقيع الغرقد في القرن الرابع بقوله : وقبر الحسن بن علي عن يمينك إذا خرجت من الدرب ترتفع إليه قليلاً عليه مكتوب هذا قبر الحسن بن علي دفن إلى جنب أمه فاطمة عليها السلام . (١)

٤. يقول الحافظ محمد بن محمود بن النجار (المتوفى عام ٦٤٣ هـ) في «اخبار مدينة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم» : في قبة كبيرة عالية قديمة البناء في أول البقيع ، وعليها بابان يفتح أحدهما في كلّ يوم للزيارة «رضي الله عنهم». (٢)

٥. ويقول ابن جبير الرحالة الطائر الصيت (المتوفى عام ٦١٤ هـ) في رحلته في وصف بقيع الغرقد : يقع في مقابل قبر مالك قبر ، السلالة الطاهرة إبراهيم بن النبي عليها قبة بيضاء ، وعلى اليمين منها تربة ابن عمر ابن الخطاب ، وبازائه قبر عقيل بن أبي طالب رضى الله عنه وعبد الله بن جعفر الطيار رضى الله عنه ، وبازائهم روضة فيها أزواج النبي صلّى الله عليه وآله وسلم ، وبها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبي صلّى الله عليه وآله وسلم ، وروضة العباس بن عبدالمطلب والحسن بن علي رضى الله عنه وهي قبة مرتفعة في الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور ، وعن يمين الخارج منه ، ورأس

١. مجلة العرب ، رقم ٦٠٥ ، المؤرخة ١٣٩٣ هـ.

٢. اخبار مدينة الرسول اهتم بنشره صالح محمد جمال بمكة المكرمة عام ١٣٦٦.

الحسن إلى رجلي العباس وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيان بألواح ملصقة ، أبدع الصاق ، مرصعة بصفائح الصفر ، ومكوكبة بمسامير على أبدع صفة ، وأجمل منظر ، وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم بن النبي ﷺ ، ويلى هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت الرسول ﷺ ويعرف ببيت الحزن ... وفي آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذي النورين وعليه قبة صغيرة مختصرة ، وعلى مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد أم علي رضي الله عنها وعن بنيتها. (١)

٦. وروى البلاذري أنه لما ماتت زينب بنت جحش سنة عشرين صلى عليها عمر ، وكان دفنها في يوم صائف ، ضرب عمر على قبرها فسطاطا. (٢)

ولم يكن الهدف من ضربه ذلك الفسطاط تسهيل الأمر لمن يتعاطى دفنها ، بل لأجل تسهيله لأهلها حتى يتفيا بظله ، ويقرأوا ما يتيسر من القرآن والدعاء.

٧. يقول السمهودي (المتوفى ٩١١ هـ) في وصف بقيع الغرقد : قد ابتنى عليها مشاهد ، منها المشهد المنسوب لعقيل بن أبي طالب وأمهات المؤمنين ، تحوي العباس والحسن بن علي ... وعليهم قبة شاحخة في الهواء ، قال ابن النجار : ... وهي كبيرة عالية ، قديمة البناء ، وعليها

١. رحله ابن جبير ، طبع بيروت ، دار صادر ، وقد زار ابن جبير المدينة المنورة عام ٥٧٨ هـ.

٢. انساب الأشراف : ١ / ٤٣٦.

بابان ، يفتح أحدهما في كلّ يوم. وقال المطري : بناها الخليفة الناصر أحمد بن المستضيء ... وقبر العباس وقبر الحسن مرتفعان من الأرض متسعان مغشيان بألواح ملصقة أبدع الصاق ، مصحفة بصفائح الصفر ، مكوكبة بمسامير على أبدع صفة وأجمل منظر. ^(١) إلى غير ذلك من الرحالة الذين زاروا المدينة المنورة ووصفوا تلك المزارات والمشاهد والقباب المرتفعة ونظر الكل إليها بعين الرضا والمحبة لا بعين السخط والغضب. وهذا النوع من الاتفاق والإجماع من قبل علماء الإسلام طيلة قرون أقوى شاهد على جواز البناء على قبور الشخصيات الإسلامية الذين لهم منزلة ومكانة في القلوب. ولنعم ما يقول العلامة العاملي :

مضت القرون وذي القباب مشيدة والناس بين مؤسس ومجدد
في كلّ عصر فيه أهل الحل وال عقد الذين بغيرهم لم يعقد
لم ينكروا أبداً على من شادها شيدت ولا من منكر ومفند
فبسيرة للمسلمين تتابعت في كل عصر نستدل ونقتدي ^(٢)

١. وفاء الوفاء : ٣ / ٩١٦ . ٩٢٩ .

٢. كشف الارتباب : ٣٩٥

البناء على القبور من منظار آخر

إنَّ صيانة القبور والآثار الباقية من بيت الوحي والعصمة عليه السلام من مظاهر حب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتكريمه ، وقد أمر المسلمون في الكتاب والسنة بحبه وتكريمه وتبجيله ، قال سبحانه : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. (١)

وقال سبحانه في وصف المؤمنين : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. (٢)

فالآية الكريمة تأمر بأمر أربعة :

١. الإيمان به.
٢. تعزيه.
٣. نصرته.
٤. اتباع كتابه وهو النور الذي أنزل معه.

١. التوبة : ٢٤.

٢. الأعراف : ١٥٧.

وليس المراد من تعزيره هو نصرته ، لأنّه قد ذكره بقوله : «نصروه» وإنما المراد توقيره ، وتكريمه وتعظيمه بما أنّه نبيُّ الرحمة والعظمة ، ولا يختص تعزيره وتوقيره بحال حياته بل يعمها ، كما أنّ الإيمان به والتبعية لكتابه لا يختصان بحال حياته الشريفة .

وعلى هذا فحب النبي ﷺ ومن يمت إليه بصلة أصل إسلامي يجب أن يهتم به المسلمون ويطبقونه في حياتهم .

ولأجل كرامة رسول الله ﷺ ومنزلته يدعو الذكر الحكيم إلى تعظيمه في المجالس وحفظ كرامته ويقول :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ .^(١)

وقال أيضاً : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاهَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فَلِلتَّقْوَى﴾ .^(٢)

وقال : ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ .^(٣)

فأي إجلال أبلغ من هذا ، وأي تقدير أروع من هذا التقدير .

١ . الحجرات : ٢ .

٢ . الحجرات : ٣ .

٣ . النور : ٦٣ .

وليس الذكر الحكيم وحده هو الداعي والأمر بحب الرسول ﷺ ، بل السنة النبوية تضافرت على لزوم حبه.

قال رسول الله : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين » .^(١)

وقد تواتر مضمون هذه الرواية عن النبي ﷺ ، فمن أراد فليرجع إلى الكتب المعدة لهذا الغرض .^(٢)

مظاهر الحب

إنَّ لهذا الحب مظاهر ومجالي ، إذ ليس الحب شيئاً يستقر في صقع النفس من دون أن يكون له انعكاس خارجي على أعمال الإنسان وتصرفاته ، بل من خصائصه أن يظهر أثره على سلوك الإنسان وملاحظه.

١ . حب الله ورسوله لا ينفك عن اتباع دينه والاستئنان بسنته والانتهاز عن نواهيه ، ولا يعقل أبداً أن يكون المرء محباً لرسول الله ﷺ ، ومع ذلك يخالفه فيما يبغضه ولا يرضيه . والاتباع أحد مظاهر الحب قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾^(٣) فمن ادعى الحب في النفس وخالف في العمل ، فقد جمع بين شيئين متخالفين متضادين .

١ . صحيح البخاري : ١ / ٨ ، باب حب الرسول من الإيمان من كتاب الإيمان .

٢ . كنز العمال : ٢ / ١٢٦ .

٣ . آل عمران : ٣١ .

وقد نسب إلى الإمام الصادق عليه السلام البيتان التاليتان :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته انّ المحب لمن يحب مطيع^(١)

٢. ومن مظاهر هذا الحب ، صيانة آثارهم وحفظ معالمهم والعناية بكلّ ما يتصل بهم حتى الاحتفاظ بما صلوا فيه من ألبسة أو شربوا منه الماء من أوان أو استخدموه من أشياء ، وتشديد مراقدهم ، وتعمير قبورهم ... كل ذلك انعكاس طبيعي لهذا الحب الكامن في النفوس والود المتمكن في القلوب.

وليس هذا أمراً مختصاً بالمسلمين ، بل الأمم المتحضرة المعتزة بماضيها وتاريخها ، تسعى إلى صيانة كلّ أثر تاريخي باق من الماضي وصيانة مرقد شخصياتهم العلمية.

وأخيراً نقول : لا شكّ أنّ لهدم الآثار والمعالم التاريخية الإسلامية لا سيما في مهد الإسلام مكة ومهجر النبي ﷺ المدينة المنورة ، نتائج ومضاعفات خطيرة على الأجيال اللاحقة التي سوف لا تجد أثراً لوقائع التاريخ الإسلامي ، وربما تؤول إلى الاعتقاد بأنّ الإسلام قضية مفتعلة وفكرة مبتدعة ليس لها جذور تاريخية ، تماماً كما أصبحت قضية السيد المسيح عليه السلام في نظر الغرب قضية اسطورية حاكتها أيدي البابوات

١. سفينة البحار ، مادة حب.

والقساوسة ، لعدم وجود آثار ملموسة تدل على أصالة هذه القضية ووجودها التاريخي.

إيضاح حديث أبي هياج

بقي هنا سؤال وهو أنّ مقتضى هذه الأدلة وإن كان هو جواز البناء على القبور لكن الحديث العلوي يمنعنا عنه وهو ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هياج الأسدي ، قال : قال لي علي بن أبي طالب : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع مثالا إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته. ^(١)

والجواب : أنّ الحديث يدل على لزوم تسطیح القبور مقابل تسنيمها ولا صلة له ببناء القبور أو البناء عليه وذلك أنّ لفظة «التسوية» تستعمل في معنيين :

١ . تطلق ويراد منها مساواة شيء بشيء فعندئذٍ تتعدى إلى المفعول الثاني بحرف التعدية كالباء قال سبحانه : ﴿إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ^(٢)

وقال سبحانه حاكياً عن حال الكافرين يوم القيامة : ﴿يَوْمَئِذٍ

١ . صحيح مسلم : ٣ / ٦٠ ، باب الأمر بتسوية القبر ؛ والسنن للترمذي : ٢ / ٢٥٦ ، باب ما جاء في تسوية القبور .

٢ . الشعراء : ٩٨ .

يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا^(١) أي يودّون أن يكونوا تراباً أو أمواتاً تحت الأرض.

٢. تطلق ويراد منها ما هو وصف لنفس الشيء لا بمقايسته إلى شيء آخر ، فعندئذٍ تكتفي بمفعول واحد.

قال سبحانه : ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾^(٢).

وقال سبحانه : ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾^(٣).

ففي هذين الموردين تقع التسوية وصفاً للشيء لا باضافته إلى غيره.
إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى تفسير الحديث فنقول :

لو أراد من قوله : سويته هو مساواة القبر بالأرض - كمساواة شيء بشيء - يلزم أن يتخذ مفعولاً ثانياً بحرف الجر كأن يقول سويته بالأرض أي جعلتهما متساويين والمفروض أنه اقتصر بمفعول واحد دون الثاني.

فتعين أنّ المراد هو الثاني أي كون المساواة وصفاً لنفس الشيء وهو القبر ومعناه عندئذٍ تسطيح القبر في مقابل تسليمه ، وبسطه في

١. النساء : ٤٢ .

٢. الأعلى : ٢ .

٣. القيامة : ٤ .

مقابل اعوجاجه ، وهذا هو الذي فهمه شراح الحديث ، وبما أنّ السنّة هي التسطّيح ، والتسليم طراً بعد ذلك ، أمر عليّ عليه السلام بأن يكافح البدعة ويسطح كلّ قبر مسنم.

ومما يؤيد أنّ المراد هو تسطّيح القبر أنّ مسلم في صحيحه عنوان الباب هكذا «باب الأمر بتسوية القبر» ثمّ نقل رواية عن ثمامة أنّه قال :

كنّا مع فضالة بن عبيد في أرض الروم ، فتوفي صاحب لنا ، فأمر فضالة بن عبيد بقبّره فسوّي. قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويته ثمّ أورد بعده حديث أبي الهياج المتقدم. (١)

وقد فسره أيضاً بما ذكرنا الفقيه القرطبي حيث قال : قال علماؤنا ظاهر حديث أبي الهياج منع تسليم القبور ورفعها. (٢)

١. صحيح مسلم : ٣ / ٦١ ، باب الأمر بتسوية القبر.

٢. تفسير القرطبي : ١٠ / ٣٨٠.

٤

بناء المساجد على القبور والصلاة فيها

إنّ بناء المساجد على القبور أو عندها والصلاة فيها مسألة فقهية فرعية لا تمتُّ إلى العقائد بصلة.

فالمرجع في هذه المسائل هم أئمة المذاهب وفقهاء الدين يستنبطون حكمه من الكتاب والسنة ، وليس لنا تكفير أو تفسيق واحد من الطرفين إذا قال بالجواز أو بعدمه ، وكم من مسألة فقهية اختلفت فيها آراء الفقهاء والمجتهدين ، ونحن بدورنا نعرض المسألة على الكتاب والسنة لنستنبط حكمها من أوثق المصادر الفقهية.

الذكر الحكيم يشرح لنا كيفية عثور الناس على قبور أصحاب الكهف وأنهم . بعد العثور . اختلفوا في كيفية تكريمهم وإحياء ذكراهم والتبرّك بهم على قولين : فمن قائل : يُبنى على قبورهم بنيان ليُخلد ذكراهم بين الناس.

إلى قائل آخر : يبنى على قبورهم مسجداً يصلّى فيه.

وقد حكى سبحانه كلا الاقتراحين من دون تنديد بواحد منهما ،

قال سبحانه : ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُغْلَبُوا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَئِئِمَّا أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا﴾. (١)

قال المفسرون : إنّ الاقتراح الأول كان لغير المسلمين ويؤيده قولهم في حق أصحاب الكهف : ﴿رَئِئِمَّا أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ وهو ينم عن اهتمام بالغ بحالهم ومكانتهم فحوّلوا أمرهم إلى رءمهم.

وأما الاقتراح الثاني فنفس المضمون (اتخاذ قبورهم مسجداً) شاهد على أنّ المقترحين كانوا هم المؤمنين ، وما اقترحوا ذلك إلا للتبرك بالمكان الذي دفنت فيه أجساد هؤلاء الموحدين.

والقرآن يذكر ذلك الاقتراح من دون أن يعقب عليه بنقد أورد وهو يدل على كونه مقبولا عند مُنزل الوحي.

قال الطبري في تفسير الآية : إنّ المبعوث دخل المدينة فجعل يمشي بين ظهري سوقها فيسمع أناساً كثيرين يحلفون باسم عيسى بن مريم ، فزاده فرقا ورأى أنّه حيران ، فقام مُسنداً ظهره إلى جدار من جذر المدينة ، ويقول في نفسه : والله ما أدري ما هذا أمّا عشية أمس فليس على الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلا قتل ، وأمّا الغداة فأسمعهم وكلّ إنسان يذكر أمر عيسى لا يخاف ، ثمّ قال في نفسه :

لعلّ هذه ليست بالمدينة التي أعرف. ^(١)

سيرة المسلمين في البناء على قبور الصالحين

إنّ سيرة المسلمين تكشف عن جواز بناء المساجد على قبور الصالحين الذين يُتبرّك بهم ولهم مكانة عالية في قلوبهم ، ويدل على ذلك الأمور التالية :

أ. دفن النبي ﷺ في بيته الذي فيه وكان في جوار المسجد النبوي ولما كثر المسلمون وازداد عددهم وضاق المسجد بهم أدخلوا الجانب الشرقي . الذي كان فيه بيوت أزواج النبي ﷺ والبيت الذي دفن فيه . في المسجد النبوي على نحو يقف المصلون أطراف القبر من الجوانب الأربعة ويحيطون به.

يقول الطبري في حوادث سنة ٨٨ : إنّ في شهر ربيع الأوّل من هذه السنة قدم كتاب الوليد على عمر بن عبد العزيز يأمره بهدم المسجد النبوي وإضافة حجر رسول الله ﷺ وأن يوسعه من قبلته وسائر نواحيه ، باشتراء الأملاك المحيطة به ، فأخبر عمر الفقهاء العشرة وأهل المدينة بذلك ، فحبذوا بقاء تلك الحجّر على حالها ليعتبر بها المسلمون ، ويكون أدعى لهم إلى الزهد اقتداءً بنبيهم ، فكاتب ابن عبد العزيز الوليد في ذلك ، فأرسل إليه يأمره بالخراب ، وتنفيذ ما ذكره في كتابه

١. تفسير الطبري : ١٥ / ١٤٥ .

الأول ، فضجَّ بنو هاشم وتباكوا ، ولكن عمر نقذ ما أمره به الوليد ، فأدخل الحجرة النبوية (حجرة عائشة) في المسجد ، فدخل القبر في المسجد وسائر حجرات أمّهات المؤمنين وقد بني عليه سقف مرتفع كما أمر الوليد. ^(١)

فإذا كان هذا العمل بمرأى ومسمع من فقهاء المدينة العشرة والمسلمين عامة ، وفي مقدم التابعين منهم علي بن الحسين زين العابدين وابنه محمد بن علي الباقر عليه السلام اللذين لم يشك أحد في زهدهما وعلمهما وعرفتهما. فهو أوضح دليل على جواز إقامة المسجد عند قبور الأنبياء والصالحين والصلاة فيه.

وقد أقر هذا العمل كلّ التابعين وجاء بعدهم إمام دار الهجرة مالك بر أئمة المذاهب الأربعة فلم يعترضوا عليه بشيء.

ب. يقول السمهودي في حقّ السيدة فاطمة بنت أسد أمّ الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام : فلما توفيت خرج رسول الله فأمر بقبورها فحفر في موضع المسجد الذي يقال له اليوم قبر فاطمة. ^(٢)

والعبارة تدل على أنّهم بنوا المسجد بعد تدفينها.

وقال في موضع آخر : إنّ مصعب بن عمير وعبد الله بن جحش دفنا تحت المسجد الذي بني على قبر حمزة. ^(٣)

١. راجع تاريخ الطبري : ٥ / ٢٢٢ ؛ البداية والنهاية : ٨ / ٦٥.

٢. وفاء الوفاء : ٣ / ٨٩٧.

٣. المصدر السابق : ٣ / ٩٢٢.

ج. أنّ السيدة عائشة قضت حياتها في بيتها وصلت فيه تمام عمرها ، ولم يكن بينها وبين القبر أيّ جدار إلى أن دفن عمر فبني جدار حال بينها وبين القبور الثلاثة. (١)

د. روى البيهقي أنّ فاطمة بنت النبي ﷺ كانت تذهب إلى زيارة قبر عمها حمزة فتبكي وتصلي عنده. (٢)

أخرج الحاكم ، عن سليمان بن داود ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن علي بن الحسين ﷺ ، عن أبيه ، أنّ فاطمة بنت النبي ﷺ :

كانت تزور قبر عمها حمزة كلّ جمعة فتصلي وتبكي عنده.

قال الحاكم : وهذا الحديث رواه عن آخرهم ثقات. وأقرّه الذهبي عليه ونقله البيهقي في سننه. (٣)

وهذا يدل على بناء المسجد على قبر حمزة في حياة النبي ﷺ والصلاة فيه.

هـ. أنّ النبي ﷺ في معجازه الذي بدأ به من المسجد الأقصى . نزل في المدينة ، وطور سينا وبيت لحم ، وصلى فيها ، فقال جبرئيل : صليت في «طيبة» وإليها مهاجرتك ، وصليت في طور سينا حيث كلم الله موسى ، وصليت في بيت لحم حيث ولد المسيح. (٤)

١. وفاء الوفاء : ٢ / ٥٤١.

٢. السنن الكبرى : ٤ / ٧٨.

٣. مستدرک الحاكم : ١ / ٣٧٧.

٤. الخصائص الكبرى : ١ / ١٥٤.

هل هناك فرق بين المدفن والمولد ، مع أنّ الصلاة في كلٍ ، لغاية واحدة وهي التبرّك
بالإنسان المثالي الذي مسّ جسده الطاهر ، ذلك التراب بداية عمره أو نهايته؟!
وبما أنّ الكتاب . مضافاً إلى السيرة المستمرة بعد رحيل رسول الله ﷺ إلى يومنا
هذا . دليل قطعي ، يكون محكماً يؤخذ به ، وما دلّ على خلافه ، يكون متشابهاً ، فيرد إلى
المحكم ويفسره بفضله.

ربما يتراءى من بعض الروايات عدم جواز اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.
فروي عن رسول الله ﷺ أنّه قال : قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.
وفي رواية أخرى : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.
وفي رواية ثالثة : ألا وإنّ من كل قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم
مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد. (١)
ولنا مع هذه الأحاديث وقفة قصيرة ، وذلك لأنّ تاريخ اليهود لا يتفق مع مضامين
تلك الروايات ، لأنّ سيرتهم قد قامت على قتل

١ . للوقوف على مصادر هذه الأحاديث راجع صحيح البخاري : ٢ / ١١١ كتاب الجنائز ؛ سنن النسائي : ٢ / ٨٧١ ، كتاب الجنائز ؛ صحيح مسلم : ٢ / ٦٨ ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور من كتاب المساجد.

الأنبياء وتشريدهم وإيذائهم إلى غير ذلك من أنواع البلاء التي كانوا يصبونها على أنبيائهم.
ويكفي في ذلك قوله سبحانه : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. (١)
وقوله سبحانه : ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. (٢)

وقال سبحانه : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ
...﴾. (٣)

أفتزعم أنّ أمة قتلت أنبياءها في مواطن مختلفة تتحول إلى أمة تشيد المساجد على قبور
أنبيائها تكريماً وتبجيلاً لهم.

وعلى فرض صدور هذا العمل عن بعضهم ، فللحديث احتمالات أخرى غير الصلاة
فيها والتبرك بصاحب القبر وهي :
أ. اتخاذ القبور قبلة.

ب. السجود على القبور تعظيماً لها بحيث يكون القبر مسجوداً عليه.

١. آل عمران : ١٨١.

٢. آل عمران : ١٨٣.

٣. النساء : ١٥٥.

ج. السجود لصاحب القبر بحيث يكون هو المسجود له ، فالقدر المتيقن هو هذه الصور الثلاث لا بناء المسجد على القبور تبركاً بها.

والشاهد على ذلك أنّ الرسول ﷺ حسب بعض الروايات يصف هؤلاء بكونهم شرار الناس.

أخرج مسلم في كتاب المساجد : أنّ أمّ حبيبة وأمّ سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبيشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : إنّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بني على قبره مسجداً ، وصوّروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة. (١)

إنّ وصفهم بشرار الخلق يعيط اللثام عن حقيقة عملهم إذ لا يوصف الإنسان بالشر المطلق إلا إذا كان مشركاً. وإن كان في الظاهر من أهل الكتاب . قال سبحانه : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾. (٢)

وقال : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. (٣)

وهذا يعرب عن أنّ عملهم لم يكن صرفاً بناء المسجد على القبر والصلاة فيه ، أو مجرد إقامة الصلاة عند القبور ، بل كان عملاً مقروناً بالشرك بألوانه وهذا كما في اتخاذ القبر مسجوداً له أو مسجوداً عليه أو

١. صحيح مسلم : ٢ / ٦٦ ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور من كتاب المساجد.

٢. الأنفال : ٢٢.

٣. الأنفال : ٥٥.

قبلة يصلى عليه.

قال القرطبي : وروى الأئمة عن أبي مرثد الغنوي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تصلّوا إلى القبور ، ولا تجلسوا عليها «لفظ مسلم» أي لا تتخذوها قبلة فتصلّوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى فيؤدي إلى عبادة من فيها. ^(١)

إنّ الصلاة عند قبر الرسول ﷺ إنّما هو لأجل التبرّك بمن دفن ، ولا غرور فيه وقد أمر سبحانه الحجاج باتخاذ مقام إبراهيم مصلى قال سبحانه : ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. ^(٢)

إنّ الصلاة عند قبور الأنبياء كالصلاة عند مقام إبراهيم غير أنّ جسد النبي إبراهيم عليه السلام لا لمس هذا المكان مرّة أو مرات عديدة ، ولكن مقام الأنبياء احتضن أجسادهم التي لا تبلى أبداً.

هذا وإنّ علماء الإسلام فسروا الروايات الناهية بمثل ما قلناه.

قال البيضاوي : لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها ، واتخذوها أوثاناً ، لعنهم ومنع المسلمين عن مثل ذلك. فأما من اتخذ مسجداً في جوار صالح وقصد التبرّك بالقرب منه لا للتعظيم ولا

١. تفسير القرطبي : ١٠ / ٣٨.

٢. البقرة : ١٢٥.

للتوجه ونحوه ، فلا يدخل في الوعيد المذكور. ^(١)

وقال السندي شارح سنن النسائي : اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، أي قبله للصلاة ويصلون إليها ، أو بنوا مساجد يصلون فيها ، ولعل وجه الكراهة أنه قد يفضي إلى عبادة نفس القبر.

إلى أن يقول : يحذر النبي ﷺ أمته أن يصنعوا بقبره ما صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم من اتخاذ تلك القبور مساجد ، إما بالسجود إليها تعظيماً لها أو بجعلها قبله يتوجهون في الصلاة إليها. ^(٢)

١. فتح الباري في شرح صحيح البخاري : ١ / ٥٢٥ ، طبعة دار المعرفة ؛ وقريب منه ما في إرشاد الساري في

شرح صحيح البخاري : ٢ / ٤٣٧ ، باب بناء المسجد على القبور.

٢. سنن النسائي : ٢ / ٤١.

٥

التوسّل بالأنبياء والصالحين

إنّ عالم الكون عالم فسيح لا يحيط الإنسان بأسراره ودقائقه ، وما اكتشفه الإنسان منها فإنّما هو ضئيل بالنسبة إلى ما خفي عليه.

كيف وما أُوتِيَ من العلم إلا قليلاً ، قال سبحانه : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .^(١)

هذا هو العالم الفيزيائي الذائع الصيت أنشتاين (المتوفى عام ١٩٥٥ م) قال : إنّ نسبة ما أعلم إلى ما لا أعلم كنسبة هذا الدرج إلى مكتبي.^(٢)

ولو أنصف لكان عليه أن يقول حتى أقل من هذه النسبة ، وكان الأولى أن يقول نسبة هذا الدرج إلى أطباق السماء.

وعلى ضوء ذلك فلله سبحانه في هذا العالم أسباب وعلل لم يصل إليها البشر مع ما بذل من الجهود.

١ . الاسراء : ٨٥ .

٢ . مجلة رسالة الإسلام السنة الرابعة ، العدد الأوّل ، مقال الكاتب المصري أحمد أمين .

ثم إن الأسباب تنقسم إلى طبيعية ومادية وإلى غيبية وإلهية ، أمّا الأول فالنظام الكائن مبني على العلل والأسباب الطبيعية وتأثير كل سبب طبيعي ومادي بإذن الله سبحانه ، وليس للعلم دور سوى الكشف عن هذه الأسباب المادية.

غير أنّ المادي ينظر إلى هذه الأسباب بنظرة استقلالية ولكن الإلهي ينظر إليها نظرة تبعية قائمة بالله سبحانه ، مؤثرة بإذنه ، وهذا هو ذو القرنين يتمسك بالأسباب الطبيعية في إيجاد السد أمام يأجوج ومأجوج ويستعين بالأسباب ولا يراها مخالفاً للتوحيد.

قال سبحانه حاكياً عنه : ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا* قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا* (١)

إنّ الاستعانة بالأحياء والاستغاثة بهم أمر جرت عليه سيرة العقلاء ، وهذا موسى الكليم استغاثه بعض شيعته فأجابه دون أن يخطر ببال أحد أنّ الاستغاثة لا تجوز إلا بالله ، قال سبحانه : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ (٢)

١. الكهف : ٩٦ - ٩٨.

٢. القصص : ١٥.

وما هذا إلا لأن موسى وشيعته تعتقد بأن المغيث إنما يغيث بقوة وإذن منه سبحانه ، فلا مانع من طلب النجدة والاستغاثة والاستعانة من الأحياء شريطة القيد المذكور ، وقد أُشير إليه في قوله سبحانه : ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(١).

كلّ ما ذكرنا كان يعود إلى التوسل بالأحياء والأسباب الطبيعية ، وهذا ليس مورد بحث ونقاش.

إنّما الكلام في التوسل بالأنبياء والأولياء لا على الطريق المألوف وله أقسام :

أ. التوسل بدعاء النبي ﷺ أو الصالحين في حال حياتهم.

ب. التوسل بذات النبي ﷺ قدسيته وشخصيته.

ج. التوسل بحق النبي ﷺ والأنبياء والصالحين.

د. التوسل بدعاء النبي ﷺ والصالحين بعد رحيلهم.

هـ. طلب الشفاعة من النبي ﷺ والأولياء.

وإليك دراسة كلّ واحد منها :

أ. التوسل بدعاء النبي ﷺ أو الصالحين في حال حياتهم

اتّفق المسلمون على جواز التوسل بدعاء الرسول ﷺ في حال

حياته ، بل يستحب التوسل بدعاء المؤمن كذلك ، قال سبحانه : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾. (١)

تجد أنه سبحانه يدعو الظالمين إلى المجيء إلى مجلس الرسول ﷺ كي يستغفر لهم النبي ﷺ .

وفي آية أخرى يندد بالمنافقين بأنهم إذا دعوا إلى المجيء إلى مجلس الرسول ﷺ وطلب المغفرة منه تنكروا ذلك واعترضوا عليه بليّ الرأس ، قال سبحانه : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾. (٢)

وتاريخ الإسلام حافل بنماذج عديدة من هذا النوع من التوسل.

ب. التوسل بذات النبي ﷺ وقدسيته وشخصيته

وها هنا وثيقة تاريخية نقلها بنصبها تعرب عن توسل الصحابة بدعاء النبي ﷺ في حال حياته أولاً ، وبقديسيته وشخصيته ثانياً ، والمقصود من نقلها هو الاستدلال على الأمر الثاني.

روى عثمان بن حنيف أنه قال : إن رجلاً ضريباً أتى النبي فقال : ادع الله أن يعافيني؟

١. النساء : ٦٤ .

٢. المنافقون : ٥ .

فقال ﷺ : إن شئت دعوت ، وإن شئت صبرت وهو خير؟

قال : فادعه ، فأمره ﷺ أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربِّي في حاجتي لتقضى ، اللهم شفعه في». قال ابن حنيف : فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضرر.

وهذه الرواية من أصح الروايات ، قال الترمذي : هذا حديث حق ، حسن صحيح.

(١)

وقال ابن ماجه : هذا حديث صحيح. (٢)

ويستفاد من الحديث أمران

الأول : أن يتوسل الإنسان بدعاء النبي ﷺ ويدل على ذلك قول الضيرير : ادعوا الله أن يعافيني ، وجواب الرسول ﷺ : إن شئت دعوت ، وإن شئت صبرت وهو خير .
الثاني : أنه يجوز للإنسان الداعي أن يتوسل بذات النبي ﷺ في ضمن دعائه وهذا يستفاد من الدعاء الذي علّمه النبي ﷺ للضيرير ،

١ . صحيح الترمذي ٥ ، كتاب الدعوات ، الباب ١١٩ برقم ٣٥٧٨ ؛ سنن ابن ماجه : ١ / ٤٤١ برقم ١٣٨٥ ؛ مسند أحمد : ٤ / ١٣٨ ؛ إلى غير ذلك .

٢ . صحيح الترمذي ٥ ، كتاب الدعوات ، الباب ١١٩ برقم ٣٥٧٨ ؛ سنن ابن ماجه : ١ / ٤٤١ برقم ١٣٨٥ ؛ مسند أحمد : ٤ / ١٣٨ ؛ إلى غير ذلك .

والإمعان فيه يثبت هذا المعنى ، وأنه يجوز لكل مسلم في مقام الدعاء أن يتوسل بذات النبي ﷺ ويتوجه به إلى الله .

وإليك الجمل التي تدل على هذا النوع من التوسل :

١ . اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك

إنّ كلمه «بنبيك» متعلّق بفعلين «أسألك» و «أتوجه إليك» والمراد من النبي ﷺ نفسه القدسية وشخصيته الكريمة لا دعاءه .

٢ . محمد نبي الرحمة

نجد أنّه يذكر اسم النبي ﷺ ثمّ يصفه بنبي الرحمة معرباً عن أنّ التوسل بذات النبي ﷺ بما لها من الكرامة والفضيلة .

٣ . يا محمد إني أتوجه بك إلى ربّي

إنّ جملة : «يا محمد إني أتوجه بك إلى ربّي» تدل على أنّ الضرير حسب تعليم الرسول ، اتخذ النبي ﷺ نفسه وسيلة لدعائه وتوسل بذاته بما لها من المقام والفضيلة . وهذا الحديث يرشدنا إلى أمرين :

الأوّل : جواز التوسل بدعاء الرسول .

الثاني : جواز التوسل إلى الله بذات النبي ﷺ بما لها من الكرامة والمنزلة عند الله تبارك وتعالى .

أمّا الأوّل ، فقد جاء في محاوره الضرير مع النبي ﷺ ، فكان

الموضوع هو دعاء الرسول ، أي طلب الضرير الدعاء منه ﷺ .
 وأما الثاني ، فيستفاد من الدعاء الذي علّمه الرسول ﷺ للضرير ، فإنه يضمن التوسل بشخص النبي ﷺ .
 نعم لم يكن يدور في خلد الضرير سوى التوسل بدعائه ولكن الرسول ﷺ علمه دعاء جاء فيه التوسل بذات النبي ﷺ وهو في نوعه توسل ثان ، وبذلك وقفنا على أنه يستحب للمسلم أن يتوسل بدعاء الصالحين من الأنبياء والأولياء كما يجوز له في دعائه التوسل بذواتهم ومقامهم ومنزلتهم .
 ويظهر من الأحاديث الشريفة أنّ أصحاب النبي ﷺ كانوا يتوسلون بذات النبي ﷺ في مقام الابتهال والدعاء حتى بعد رحيل النبي ﷺ .
 أخرج الطبراني ، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ، عن عمّه عثمان بن حنيف : أنّ رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له ، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته ، فلقي ابن حنيف فشكا ذلك إليه ، فقال له عثمان بن حنيف : ائت الميضاة فتوضأ ، ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ، ثم قل : «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربّي فتقضى لي حاجتي» فتذكر حاجتك ورح حتى أروح معك .
 فانطلق الرجل فصنع ما قال له ، ثم أتى باب عثمان بن عفان ،

فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان ، فأجلسه معه على الطنفسة ، فقال : حاجتك؟ فذكر حاجته وقضاها له ، ثم قال له : ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة. وقال : ما كانت لك من حاجة فاذكرها.

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف ، فقال له : جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتى كلمته فيّ ، فقال عثمان بن حنيف : والله ما كلمته ، ولكنني شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره ، فقال له النبي ﷺ : فتصبر؟ فقال : يا رسول الله ليس لي قائد فقد شقّ عليّ. فقال النبي ﷺ : إئت الميضاة فتوضأ ، ثم صل ركعتين ، ثم ادع بهذه الدعوات. قال ابن حنيف : فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنّه لم يكن به ضرّ قط. (١)

إنّ سيرة المسلمين في حياة النبي ﷺ وبعدها ، استقرت على أنّهم كانوا يتوسلون بأولياء الله والصالحين من عباده ، دون أن يدور في خلد أحد منهم بأنّه أمر حرام أو شرك أو بدعة ، بل كانوا يرون التوسل بدعاء

١ . المعجم الكبير للحافظ سليمان بن أحمد الطبراني : ٩ / ٣٠ - ٣١ ، باب ما أسند إلى عثمان بن حنيف برقم ٨٣١١ ؛ والمعجم الصغير له أيضاً : ١ / ١٨٣ - ١٨٤ .

الصالحين طريقاً إلى التوسل بمنزلتهم ، وشخصيتهم ، فأنه لو كان لدعاء الرجل الصالح أثر ، فإنما هو لأجل قداسة نفسه وطهارتها ، ولولاهما لما استجيب دعوته ، فما معنى الفرق بين التوسل بدعاء الصالح وبين التوسل بشخصه وذاته ، حتى يكون الأول نفس التوحيد والآخر عين الشرك أو ذريعة إليه.

إنّ التوسل بقدسية الصالحين ، والمعصومين من الذنب ، والمخلصين من عباد الله لم يكن قط أمراً جديداً بين الصحابة بل كان ذلك امتداداً للسيره الموجودة قبل الإسلام ، فقد تضافرت الروايات التاريخية على ذلك وإليك البيان :

١ . استسقاء عبد المطلب بالنبي ﷺ وهو رضيع :

لقد استسقى عبد المطلب بالنبي ﷺ وهو طفل صغير ، حتى قال ابن حجر : إنّ أبا طالب يشير بقوله :

وابيض يستقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل إلى ما وقع في زمن عبد المطلب حيث استسقى لقريش والنبي ﷺ معه غلام. (١)

٢ . استسقاء أبي طالب بالنبي ﷺ :

أخرج ابن عساكر عن ابن عرفة ، قال : قدمت مكة وقريش في

١ . فتح الباري : ٢ / ٣٩٨ ؛ دلائل النبوة : ٢ / ١٢٦ .

قحط فقالت قريش : يا أبا طالب أقحط الوادي وأجذب العيال ، فهلم فاستسق ، فخرج أبو طالب ومعه غلام . يعني : النبي ﷺ كأنه شمس دجن تجلت عنه سحابة قتماء ، وحوله اغيلمة ، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ باصبغه الغلام وما في السماء قزعه ، فأقبل السحاب من هاهنا ومن هاهنا واغدودق وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي ، وفي ذلك يقول أبو طالب في قصيدة يمدح بها النبي ﷺ :

وابيض يستقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل^(١)
وقد كان استسقاء أبي طالب بالنبي ﷺ وهو غلام ، بل استسقاء عبد المطلب به وهو صبي أمراً معروفاً بين العرب ، وكان شعر أبي طالب في هذه الواقعة مما يحفظه أكثر الناس .

ويظهر من الروايات أنّ استسقاء أبي طالب بالنبي ﷺ كان موضع رضا من رسول الله ﷺ فإنه بعد ما بعث للرسالة استسقى للناس ، فجاء المطر واخصب الوادي فقال النبي ﷺ : « لو كان أبو طالب حياً لقرت عيناه ، من ينشدنا قوله؟ » .
فقام علي بن أبي طالب وقال : يا رسول الله ﷺ كأنك أردت قوله :

وابيض يستقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل^(٢)

١ . السيرة الحلبية : ١ / ١١٦

٢ . إرشاد الساري : ٢ / ٣٣٨

إنّ التوسل بالأطفال الأبرياء في الاستسقاء أمر ندب إليه الشرع الشريف ، فهذا هو الإمام الشافعي يقول : أن يخرج الصبيان ، ويتنظفوا للاستسقاء وكبار النساء ومن لا هيئة له منهنّ ، ولا أحب خروج ذوات الهيئة ولا أمر بإخراج البهائم^(١).

وما الهدف من إخراج الصبيان والنساء الطاعنات في السن ، إلا استنزال الرحمة بهم وبقداستهم وطهارتهم ، وكلّ ذلك يعرب عن أنّ التوسل بالأبرياء والصلحاء والمعصومين مفتاح استنزال الرحمة وكأنّ المتوسل بهم يقول : ربّي وسيدي إنّ الصغير معصوم من الذنب ، والكبير الطاعن في السن أسيرك في أرضك ، وكلتا الطائفتين أحقّ بالرحمة والرحمة ، فلاجلهم أنزل رحمتك إلينا ، حتى تعمنا في ظلهم.

فإنّ الساقى ربما يسقي مساحة كبيرة لأجل شجرة واحدة وفي ظلها تسقى الأعشاب غير المفيدة.

وعلى ضوء هذا التحليل يفسر توسل الخليفة بعمّ الرسول : «العباس بن عبد المطلب» الذي سيمر عليك ، وأتّه كان توسلاً بشخصه وقداسته وصلته بالرسول ﷺ وتعلم بالتالي أنّ هذا العمل كان امتداداً للسيرة المستمرة ، وإنّ هذا لا يمت إلى التوسل بدعاء العباس بصلة.

١. الأتم : ١ / ٢٤٨ ، باب خروج النساء والصبيان في الاستسقاء.

٣. التوسل بعم النبي ﷺ

أخرج البخاري في صحيحه ، عن أنس : «أنّ عمر بن الخطاب كان إذا قَحَطُوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب رضى الله عنه فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنّا نتوسل إليك بعمّ نبينا فاسقنا. قال : فيسقون»^(١).

هذا ما نصّ عليه البخاري وهو يدل على أنّ عمر بن الخطاب عند دعائه واستسقائه توسل بعمّ النبي ﷺ وشخصه وشخصيته وقدرته وقربته من النبي ﷺ لا بدعائه ويدل على ذلك :

قول الخليفة عند الدعاء : «اللهم كُنّا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنّا نتوسل إليك بعمّ نبينا فاسقنا» وهذا ظاهر في أنّ الخليفة قام بنفسه بالدعاء عند الاستسقاء ، وتوسل بعمّ الرسول وقربته منه في دعائه.

ج. التوسل بحق النبي ﷺ والأنبياء والصالحين

وهناك لون آخر من التوسل وهو التوسل بحق الأنبياء والمرسلين ، والمراد الحقّ الذي تفضل به سبحانه عليهم فجعلهم أصحاب الحقوق ، وليس معنى ذلك أنّ للعباد أو للصالحين على الله حقّاً ذاتياً يلزم عليه تعالى الخروج منه ، بل الحقّ كلّ الله ، وإنّما المراد ،

١. صحيح البخاري : ٢ / ٢٧ ، باب صلاة الاستسقاء ، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا من كتاب الصلاة.

الحقّ الذي منحه سبحانه لهم تكريماً ، وجعلهم أصحاب حقّ على الله ، كما قال سبحانه :
﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

ويدل على ذلك من الروايات ما يلي :

أ. روى أبو سعيد الخدري : قال : قال رسول الله ﷺ : من خرج من بيته إلى الصلاة ، وقال : اللهم إني أسألك بحقّ السائلين عليك ، وأسألك بحقّ ممشي هذا ، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعةً وخرجت اتقاء سُخْطِكَ وابتغاء مرضاتِكَ ، فأسألك أن تعيذني من النار ، وأن تغفر لي ذنوبي أنّه لا يغفر الذنوب إلّا أنت ، أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك.^(٢)

ب. روى عمر بن الخطاب ، قال : قال رسول الله ﷺ : لما اقترَفَ آدم الخطيئة ، قال : ربّي أسألك بحقّ محمّد لما غفرت لي ، فقال الله عزّ وجلّ : يا آدم كيف عرفت محمّداً ولم أخلقه قال : لأنّك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك ، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلّا الله ، محمّد رسول الله ، فعلمت أنّك لم تضيف إلى اسمك إلّا أحبّ الخلق إليك ، فقال الله عزّ وجلّ : صدقت يا آدم أنّه لأحبّ الخلق إليّ ، وإذا سألتني بحقه فقد غفرت ولولا محمّد ما خلقتك.^(٣)

١. الروم : ٤٧ .

٢. سنن ابن ماجه : ١ / ٢٥٦ رقم ٧٧٨ ، باب المساجد ؛ مسند أحمد : ٣ / ٢١ .

٣. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي : ٥ / ٤٨٩ ، دار الكتب العلمية .

ج. روى الطبراني بسنده عن أنس بن مالك أنه لما ماتت فاطمة بنت أسد حفروا قبرها ، فلمّا بلغوا اللحد حفر رسول الله بيده وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل رسول الله فاضطجع فيه ، وقال : الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأُمّي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ، ووسّع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي ، فانك أرحم الراحمين. (١)

إلى هنا تمّ البحث عن أقسام التوسل الثلاثة وعرفت أنّ الجميع يدعمه الكتاب والسنة وتصور أنّ التوسل بغيره سبحانه تأليه وعباده لغيره قد عرفت بطلانه وذلك لوجهين :

الوجه الأول : لو كان التوسل بدعاء النبي ﷺ وذاته أو حقّه شركاً يلزم أن يكون كلّ توسل كذلك حتى التوسل بالغير في الأمور العادية مع أنّه باطل بالضرورة ، لأنّ الجميع من قبيل التوسل بالأسباب ، عادية كانت أو غير عادية ، طبعية كانت أو غير طبيعية.

الوجه الثاني : قد عرفت في تعريف العبادة أنّه الخضوع أمام الغير بما هو إله أو ربّ أو مفوض إليه أموره سبحانه ، وليس واحد من هذه القيود متحقّقاً في التوسل بالأنبياء والصالحين والشهداء بل يتوسل بهم بما أنّهم عباد مكرمون يستجاب دعاؤهم عند الله سبحانه ، أو أنّ

١. معجم الطبراني الأوسط : ٣٥٦ ؛ حلية الأولياء : ٣ / ١٢١ ؛ مستدرک الحاكم : ٣ / ١٠٨ .

لذواتهم وحقوقهم منزلة عند الله ، فالتوسل بهم يثير بحار رحمته .
كيف يكون التوسل بنبي التوحيد ﷺ شركاً مع أنه يتوسل به بما أنه مكافح للشرك
ومقوض لدعائمه؟

د. التوسل بدعاء النبي ﷺ والصالحين بعد رحيلهم

من أقسام التوسل الرائجة بين المسلمين هو التوسل بدعاء النبي ﷺ أو الصالحين
بعد رحيلهم .

ولكن ثمة سؤالاً يطرح نفسه وهو :

إنّ التوسل بدعاء الغير إنّما يصحّ إذا كان الغير حياً يسمع دعاءك ويستجيب لك
ويدعو الله سبحانه لقضاء وطرك ونجاح سؤالك ، أمّا إذا كان المستغاث ميتاً انتقل من هذه
الدنيا فكيف يصحّ التوسل بمن انتقل إلى رحمة الله وهو لا يسمع؟
والجواب : إنّ الموت . حسب ما يوحى إليه القرآن والسنة النبوية . ليس بمعنى فناء
الإنسان وانعدامه ، بل معناه الانتقال من دار إلى دار وبقاء الحياة بنحو آخر والذي يعبر
عنه بالحياة البرزخية .

وتدل على بقاء الحياة آيات من الذكر الحكيم تقتصر على بعضها :
الآية الأولى :

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

(١)

وقد كان المشركون يقولون : إنّ أصحاب محمد يقتلون أنفسهم في الحروب دون سبب ، ثمّ يقتلون ويموتون فيذهبون ، فوافى الوحي ردّاً عليهم بأنّه ليس الأمر على ما يقولون ، بل هم أحياء وإن كان المشركون وغيرهم لا يدركون ذلك.

الآية الثانية

قوله تعالى : ١. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ

يُرْزَقُونَ﴾.

٢. ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٣. ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. (٢)

١. البقرة : ١٥٤.

٢. آل عمران : ١٦٩ . ١٧١.

والآيات هذه صريحة في بقاء الأرواح بعد مفارقتها الأبدان ، وبعد انفكاك الأجسام وبلاها ، كما يتضح ذلك من الإمعان في المقاطع الأربعة التالية :

١. ﴿أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

٢. ﴿يُرْزَقُونَ﴾.

٣. ﴿فَرِحِينَ﴾.

٤. ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾.

والمقطع الثاني يشير إلى التنعم بالنعم الإلهية ، والثالث والرابع يشير إلى النعم الروحية والمعنوية ، وفي الآية دلالة واضحة على بقاء الشهداء بعد الموت إلى يوم القيامة. وقد نزلت الآية : إمّا في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلاً ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين ، وإمّا في شهداء أحد وكانوا سبعين رجلاً ، أربعة من المهاجرين : حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وعثمان بن شماس ، وعبد الله بن جحش وسائرهم من الأنصار ، وعلى قول نزلت في حقّ كلتا الطائفتين.

الآية الثالثة

قوله سبحانه : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ* اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ* وَمَالِيَ لَا

أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ* أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونُ* إِنْ يَإِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ* إِنْ آمَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُوا* قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ* وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ* إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿١﴾

اتفق المفسرون على أنَّ الآيات نزلت في رسل عيسى عليه السلام ، وقد نزلوا بأنطاكيا داعين أهلها إلى التوحيد وترك عبادة غيره سبحانه ، فعارضهم من كان فيها بوجوه مذكورة في نفس السورة.

فبينما كان القوم والرسل يتحاجون إذ جاء رجل من أقصى المدينة يدعوهم إلى الله سبحانه وقال لهم :

إِتَّبِعُوا معاشر الكفار من لا يطلبون منكم الأجر ولا يسألونكم أموالكم على ما جاءوكم به من الهدى ، وهم مهتدون إلى طريق الحق ، سالكون سبيله ، ثم أضاف قائلاً :
ومالي لا أعبد الذي فطرني وأنشأني وأنعم إليّ وهداني وإليه ترجعون عند البعث ، فيجزىكم بكفركم أتأمروني أن أتخذ آلهة من دون الله مع أنهم لا يغنون شيئاً ولا يردون ضرراً عني ، ولا تنفعني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذوني من الهلاك والضرر ، وعندما مهّد السبيل

إلى إبطال مزاعم المشركين وبيان سخافة منطقهم ، فعندئذٍ خاطب الناس أو الرسل بقوله :
﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ فسواء أكان الخطاب للمشركين أو للرسل فإذا بالكفار قد
هاجموه فرجموه حتى قتل.

ولكنه سبحانه جزاه بالأمر بدخول الجنة ، بقوله : ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ ثم هو
خاطب قومه الذين قتلوه ، بقوله : ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
الْمُكْرَمِينَ﴾.

ثم إنه سبحانه لم يمهل القاتلين طويلاً حتى أرسل جنداً من السماء لإهلاكهم ، يقول
سبحانه : ﴿وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ إِنَّ كَانَتْ إِلَّا
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

أي : كان إهلاكهم عن آخرهم بأيسر أمر ، وهي صيحة واحدة حتى هلكوا بأجمعهم
، فإذا هم خامدون ساكتون.

ودلالة الآية على بقاء النفس وإدراكها وشعورها وإرسالها الخطابات إلى من في الحياة
الدنيا من الوضوح بمكان ، حيث كان دخول الجنة : ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ والتمني ﴿يَا لَيْتَ
قَوْمِي﴾ كان قبل قيام الساعة ، والمراد من الجنة هي الجنة البرزخية دون الأخروية.
إلى هنا تمّ بيان بعض الآيات الدالة على بقاء أرواح الشهداء

الذين بذلوا مهجهم في سبيل الله. وثمة طائفة من الآيات تدل على بقاء أرواح الكفار بعد انتقالهم عن هذه الدنيا ، مقتزنة بألوان العذاب ، وهناك طائفة أخرى من الآيات تدل على بقاء الروح بعد رحيل الإنسان المؤمن والكافر من هذه الدار ، ولنذكر هذه الآيات على وجه الإيجاز :

١. ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَتَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾. (١)

تدل الآية بوضوح على أنّ آل فرعون يُعرضون على النار قبل قيام الساعة غدوًّا وعشيًّا ، كما أنّهم بعد قيامها يُدخلون أشدّ العذاب ، فعذابهم قبل الساعة غير عذابهم بعدها ، وهو دليل صريح على حياة تلك الطغمة.

٢. ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾. (٢)

تدل الآية على أنّ قوم نوح اغرقوا أولاً فادخلوا ناراً ، ولم يجدوا لأنفسهم أنصاراً وليست هذه النار ، نار يوم القيامة بشهادة أنّه سبحانه يقول : ﴿فادخلوا ناراً﴾ وهو يدل على تحقق الدخول بلا فاصل زمني بعد الغرق ولو أُريد نار يوم الساعة لكان الأنسب أن يقول «فيدخلون ناراً».

١. غافر : ٤٦ .

٢. نوح : ٢٥ .

٣. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. (١)

إنَّ الكافر حينما يواجه الموت يجد مستقبل حياته مظلماً وكأنَّه يشاهد العذاب الأليم بأم عينه بعد موته فيتمنَّى الرجوع إلى الحياة الدنيا ، فيجاب ب ﴿كَلَّا﴾ وما يشاهده ليس إلا عذاباً برزخياً لا عذاباً أخروياً ولذلك يقول سبحانه ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. هذه الآيات وغيرها تعرب عن بقاء الحياة بعد الانتقال عن نشأة الدنيا ، وإن أُطلق الموت عليه فإنَّما هو باعتبار انتهاء أمد حياته الدنيوية واندثار بدنه وأما روحه ونفسه فهي باقية بنحو آخر تتنعم أو تعذب.

الصلة بين الحياتين : الدنيوية والبرزخية

ربما يمكن أن يقال : أنَّ الآيات دلت على كون الشهداء والأولياء بل الكفار أحياء ، ولكن لا دليل على وجود الصلة بين الحياتين وأنَّهم يسمعون كلامنا ، وهذا هو الذي نطرحه في المقام ونقول :

دَلَّ الذكر الحكيم على وجود الصلة بين الحياة الدنيوية والبرزخية بمعنى أنَّ الأحياء بالحياة البرزخية يسمعون كلامنا

ويشاهدون أفعالنا ، وليسوا بمنقطعين تمام الانقطاع عن الحياة الدنيوية وإليك شواهد من الآيات :

١. قال سبحانه : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ .^(١)

نزلت الآيات في قصة النبي صالح حيث دعا قومه إلى عبادة الله وترك التعرض لمعجزته (الناقة) وعدم مسّها بسوء ، ولكنهم بدل ذلك فقد عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم فعمّهم العذاب فأصبحوا في دارهم جاثمين ، فعند ذلك عاد النبي صالح يخاطبهم وهم هلكى ، بقوله : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

وقد صدر الخطاب من النبي صالح ﷺ بعد هلاكهم وموتهم ، بشهادة قوله : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ في صدر الخطاب المصدرة بالفاء المشعرة بصدور الخطاب عقيب هلاك القوم.

فلو لم تكن هناك صلة بين الحياتين لما خاطبهم النبي صالح بهذا الخطاب.

٢. قال سبحانه : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

١. الأعراف : ٧٨ - ٧٩.

جَائِمِينَ* الَّذِينَ كَذَبُوا شَعْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شَعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ* فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ* ﴿١﴾

وقد وردت هذه الآية في حق النبي شعيب عليه السلام ودلالة الآية كدلالة سابقتها ، حيث يخاطب شعيب قومه بعد هلاكهم ، فلو كانت الصلة مفقودة ولم يكن الهالكون بسبب الرجفة سامعين لخطاب نبيهم ، فما معنى خطابه لهم؟

٣. قال سبحانه : ﴿وَسْئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾. (٢)

ترى أنه سبحانه يأمر النبي ﷺ بسؤال الأنبياء الذين بعثوا قبله وأما مكان السؤال فلعله كان في ليلة الاسراء.

السنة الشريفة والصلة بين الحياتين

ثمة روايات متضافرة بل متواترة تدل على وجود الصلة بين الحياتين ، وجمع هذه الروايات بحاجة إلى تأليف كتاب مفرد.

ونكتفي هنا بالحديث المتفق عليه بين المسلمين وهو تكليم النبي ﷺ أهل القليب.

١. الأعراف : ٩١ - ٩٣.

٢. الزخرف : ٤٥.

لقد انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين وهزيمة المشركين قتل منهم قرابة سبعين من صناديدهم وساداتهم وطرحت جثث قتلاهم في القليب ، فوقف النبي ﷺ يخاطبهم واحداً تلو الآخر ، ويقول : يا أهل القليب ، يا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، يا أمية بن خلف ، يا أباجهل ، وهكذا عدّ من كان منهم بالقليب ، وقال : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً؟!

فقال له أصحابه : يا رسول الله أتنادي قوماً موتى؟!

فقال ﷺ : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني .

يقول ابن هشام بعد هذا النقل : إنّ النبي ﷺ قال : يا أهل القليب بغس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذّبتُموني وصدّقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتُموني ونصرني الناس .

ثمّ قال : هل وجدتم ما وعدكم ربي حقاً؟! .^(١)

أخرج البخاري : عن نافع أنّ ابن عمر أخبره ، قال : اطلع النبي ﷺ على أهل القليب ، فقال : وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟!

فقيل له : ندعوا أمواتاً ، فقال : ما أنتم بأسمع منهم ، ولكن لا يجيبون .^(٢)

١ . السيرة النبوية : ١ / ٦٤٩ ؛ السيرة الحلبية : ٢ / ١٧٩ و ١٨٠ .

٢ . صحيح البخاري : ٩ : ٩٨ ، باب ما جاء في عذاب القبر من كتاب الجنائز .

وأخيراً نقول : إنّ جميع المسلمين . على الرغم من الخلافات المذهبية بينهم في فروع الدين . يسلمون على رسول الله ﷺ في الصلاة عند ختامها ويقولون :
«السلام عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته».

وقد أفتى الإمام الشافعي وآخرون بوجوب هذا السلام بعد التشهد ، وأفتى الآخرون باستحبابه ، لكن الجميع متفقون على أنّ النبي ﷺ علمهم السلام وأنّ سنة النبي ﷺ ثابتة في حياته وبعد وفاته. (١)

فلو انقطعت صلتنا بالنبي ﷺ بوفاته ، فما معنى مخاطبته والسلام عليه يومياً؟!

سؤال وجواب

لو كانت الصلة بيننا وبين من فارقوا الحياة موجودة فما معنى قوله سبحانه : ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ (٢) وقوله سبحانه : ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾. (٣)
والجواب : بملاحظة الآيات السابقة هو أنّ المراد من الإسماع ، الإسماع المفيد ، ومن المعلوم أنّ سماع الموتى أو من في القبور لا يجدي

١. تذكرة الفقهاء : ٣ / ٣٣٣ ، المسألة ٢٩٤ ؛ الخلاف : ١ / ٤٧ .

٢. الروم : ٥٢ .

٣. فاطر : ٢٢ .

نفعاً بعدما ماتوا كافرين ، وإلا فهذا هو النبي ﷺ ، يقول : «الميت يسمع قرع النعال» في حديث أخرجه البخاري عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : إنّ العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى أنّه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ فيقول : أشهد أنّه عبد الله ورسوله إلى آخر ما نقل. (١)

وقد مرّ أنّ النبي ﷺ كان يزور القبور ، ويخرج آخر الليل إلى البقيع ، فيقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون ، غداً مأجلون وانا إن شاء الله بكم لاحقون ، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد. (٢)

اتفق المسلمون على تعذيب الميت في القبر ، أخرج البخاري عن ابنة خالد بن سعيد بن العاص أنّها سمعت النبي ﷺ وهو يتعوذ من عذاب القبر ، وأخرج عن أبي هريرة كان رسول الله ﷺ يدعو : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار. (٣)

كلّ ذلك يدل على أنّ المراد من نفي الاسماع هو الاسماع المفيد. تحقيقاً لقوله سبحانه : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا

١. البخاري : الصحيح : ٢ / ٩٠ ، باب الميت يسمع خفق النعال.

٢. صحيح مسلم : ٣ / ٦٣ ، باب ما يقال عند دخول القبور من كتاب الجنائز.

٣. البخاري : الصحيح : ٢ / ٩٩ ، باب التعوذ من عذاب القبر من كتاب الصلاة.

وَمَنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ^(١) حيث إنّ الآية صريحة في ردّ دعوة الكفار حيث طلبوا من الله سبحانه أن يُرجعهم إلى الدنيا حتى يعملوا صالحاً ، فيأتيهم النداء «بكلاً» فيكون تمنّيههم بلا جدوى ولا فائدة كما أنّ سماع الموتى كذلك ، لا أنّهم لا يسمعون أبداً ، إذ هو مخالف لما مرّ من صريح الآيات والروايات.

هـ. طلب الشفاعة

اتفقت الأمة الإسلامية على أنّ الشفاعة أصل من أصول الإسلام نطق به الكتاب والسنة النبوية ، وأحاديث العترة الطاهرة ، ولم يخالف في ذلك أحد من المسلمين وإن اختلفوا في بعض خصوصياتها.

وأجمع العلماء على أنّ النبي ﷺ أحد الشفعاء يوم القيامة ، إلّا أنّ الكلام في المقام في طلب الشفاعة من النبي ﷺ فهل يجوز أن نقول : يا رسول الله اشفع لنا عند الله ، كما يجوز أن نقول : اللهم شفع نبينا محمداً ﷺ فينا يوم القيامة ، أو لا يجوز؟ تظهر حقيقة الحال من خلال الوجوه التالية :

الوجه الأول : إنّ حقيقة الشفاعة ليست لإدعاء النبي ﷺ أو الولي ﷺ في حقّ المذنب وإذا كانت هذه حقيقتها فلا مانع من طلبها من الصالحين ، لأنّ غاية هذا الطلب هو طلب الدعاء ، فلو قال

القائل : «يا وحيهاً عند الله اشفع لنا عند الله» يكون معناه ادع لنا عند ربك فهل يرتاب في جواز ذلك مسلم؟

والدليل على أنّ الشفاعة هو طلب الدعاء ، ما أخرجه مسلم ، عن عبد الله بن عباس ، أنّه قال : سمعت رسول الله يقول : ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله فيه. ^(١) أي قبل شفاعتهم فيه وليست شفاعتهم إلاّ ادعائهم له بالغفران.

وعلى هذا فلا وجه لمنع الاستشفاع بالصالحين إذا كان مآله إلى طلب الدعاء.

الوجه الثاني : أنّ سيرة المسلمين تكشف عن جواز طلب الشفاعة في عصر النبي

ﷺ وبعده.

أخرج الترمذي في سننه عن أنس قال : سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة ، فقال : أنا فاعل ، قال : قلت يا رسول الله فأين أطلبك؟ فقال : اطلبني أوّل ما تطلبني على الصراط. ^(٢)

نقل ابن هشام في سيرته : أنّه لما توفّي رسول الله ﷺ كشف أبو بكر عن وجهه وقبله ، وقال : بأبي أنت وأُمّي أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثمّ لن تصيبك بعدها موتة أبداً. ^(٣)

١. صحيح مسلم : ٣ / ٥٣ ، باب من صلّى عليه أربعون شفّعوا فيه من كتاب الجنائز.

٢. سنن الترمذي : ٤ / ٦٢١ ، كتاب صفة القيامة.

٣. السيرة النبوية : ٢ / ٦٥٦ ، ط عام ١٣٧٥ هـ وهو يدل على وجود الصلة بين الأحياء والأموات وقد جئنا به لتلك الغاية.

وقال الرضي في نهج البلاغة : لما فرغ أمير المؤمنين عليه السلام من تغسيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال كلاماً وفي آخره : بأبي أنت وأُمِّي طبت حياً وطبت ميتاً أذكرنا عند ربك. ^(١)

إنّ كلام الإمام يدلّ على عدم الفرق في طلب الشفاعة من الشفيّع في حين حياته وبعد وفاته ، وقد كان الصحابة يطلبون الدعاء من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته.

وتصور أنّ طلب الشفاعة من الشفيّع الواقعي شرك تصور خاطئ ، فإنّ المراد من الشرك في المقام هو الشرك في العبادة ، وقد علمت أنّ مقومه هو الاعتقاد بألوهية المدعوّ أو ربوبيته أو كون مصير العبد بيده ، وليس في المقام من ذلك شيء.

إنّ طالب الشفاعة من الشفعاء الصالحين . الذين أذن الله لهم بالشفاعة . إنّما يعتبرهم عبداً لله مقربين لديه ، وجهاء فيطلب منهم الدعاء ، وليس طلب الدعاء من الميت عبادة له ، وإلّا لزم كون طلبه من الحي عبادة لوحدة واقعية العمل.

وقياس طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بطلب الوثنيين الشفاعة من الأصنام قياس مع الفارق ، لأنّ المشركين كانوا على اعتقاد بألوهية معبوداتهم وربوبيتها ، وأين هذا من طلب الموحد الذي لا يراه إلهاً ولا ربّاً ولا من بيده مصير حياته؟! وإنّما تعتبر الأعمال بالنيات لا بالصور والظواهر.

١. نهج البلاغة : ٢٢ / ٥٤٢ ، الحديث ٥٥.

انتفاع الموتى بأعمال الأحياء

ينتفع الإنسان بالإيمان إذا انضم إليه العمل الصالح ولا ينفع إيمان تجرد عن العمل ،
ولأجل ذلك قرن الله سبحانه العمل الصالح إلى جانب الإيمان في أكثر الآيات ، وقال :
﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(١) فلا اعتماد على الإيمان مجرداً عن العمل فعل
الحققي.

وهذا هو الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام يؤكد في خطبته على العمل ، إذ يقول :
«فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل».^(٢)
ويقول في خطبة أخرى : «ألا وإنّ اليوم المضمار وغداً السباق والسبقة الجنة والغاية
النار ، أفلا تائب من خطيئته قبل منيته ، ألا عامل لنفسه قبل يوم يؤسه».^(٣)

انتفاع الإنسان بعمله وعمل غيره

كما أنّ الإنسان ينتفع بعمل نفسه كصلاته وصومه كذلك ينتفع

١. العصر : ٣.

٢. نهج البلاغة : الخطبة ٤٢.

٣. نهج البلاغة : الخطبة ٢٧.

بعمل غيره إذا كان له دور فيه كما إذا خَلَّفَ أعمالاً خيرية يستفيد منه الناس كصدقة جارية أجراها أو إذا ترك علماً ينتفع به أو ربّي ولدًا صالحاً يدعو له ، فهو ينتفع بصدقاته وعلومه ودعاء ولده.

ونظيره الجسر الذي بناه ، والنهر الذي أجراه ، والمدرسة التي شيّدها ، والطريق الذي عبّده ، فقد ينتفع به لأنّها أعمال قام بها بنفسه باقية بعد موته.

أخرج مسلم في صحيحه أنّ رسول الله ﷺ ، قال : «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلّا من ثلاثة : إلّا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له». (١)
وأخرج مسلم ، عن جرير بن عبد الله ، قال : قال رسول الله : من سنّ في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء ، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء. (٢)

ففي هذا المورد ينتفع الميت بعد موته بعمل الغير لقيامه في ترغيب ذلك الغير وتشويقه إلى فعله ، فإنّ من سنّ سنة حسنة كأنّه يدعو الغير بعمله هذا إلى الاقتداء به.

١. صحيح مسلم : ٥ / ٧٣ ، باب وصول ثواب الصدقات إلى الميت من كتاب الهبات.

٢. صحيح مسلم : ٨ / ٦١ ، باب «من سنّ سنة حسنة أو سيئة» من كتاب العلم.

إنما الكلام فيما إذا لم يكن للميت نصيب في العمل ، فهل يصل ثواب عمل الغير إليه إذا أهدى صاحب العمل ثوابه إليه؟
فالظاهر من الكتاب والسنة أنه سبحانه بعميم فضله وواسع جوده يوصل ثواب عمل الغير إلى الميت فيما إذا قام الغير بعمل صالح نيابة عنه وبعث ثوابه إليه ، ويدل عليه لفيف من الآيات والروايات.

١. استغفار الملائكة للمؤمنين

قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٢).

٢. دعاء المؤمنين للسابقين إلى الإيمان

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٣)

١. المؤمن : ٧.

٢. الشورى : ٥.

٣. الحشر : ١٠.

فلو لم يكن لاستغفار الملائكة ودعاء المؤمنين للتابعين سبيل الله مفيداً ، فما معنى نقله سبحانه عنهم كما عرفت.

وأما الروايات فحدّث عنها ولا حرج.

١. أخرج مسلم ، عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ قال : من مات وعليه صيام صام عنه وليه. (١)

٢. وأخرج أيضاً عن ابن عباس ، قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله إنّ أمّي ماتت وعليها صوم شهر أفأقضي عنها ، قال : نعم ، فدين الله أحقّ أن يقضى. (٢)

٣. روى سعد بن عباد ، أنّه قال لرسول الله ﷺ : إنّ أمّي ماتت وعليها نذر أفيجزئ عنها أن أعتق عنها ، قال : اعتق عن أمك. (٣)

٤. روى أبو هريرة ، أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ : إنّ أبي مات وترك مالاً ولم يوص ، فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه؟ قال : نعم. (٤)

٥. روى سعد بن عباد ، أنّه قال : يا رسول الله ، إنّ أم سعد ماتت ، فأبي الصدقة أفضل؟ قال : الماء. قال : فحفر بئراً ، وقال : هذه لأُم سعد. (٥)

١. صحيح مسلم : ٣ / ١٥٥ . ١٥٦ ، باب قضاء الصيام عن الميت ، وفي هذا الباب روايات تركنا ذكرها للاختصار.

٢. صحيح مسلم : ٣ / ١٥٥ . ١٥٦ ، باب قضاء الصيام عن الميت ، وفي هذا الباب روايات تركنا ذكرها للاختصار.

٣. سنن النسائي : ٦ / ٢٥٣ ، باب فضل الصدقة على الميت.

٤. صحيح مسلم : ٥ / ٧٣ ، باب وصول ثواب الصدقات إلى الميت من كتاب الهبات.

٥. سنن أبي داود : ٢ / ١٣٠ برقم ١٦٨١ ، باب «في فضل سقي الماء».

واللام في قوله : هذه لأُمّ سعد هي لام الاختصاص ، نظير قوله سبحانه : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾^(١) وهي دالة على الجهة التي تصرف فيها الصدقة ، وليست من قبيل اللام الداخلة على لفظ الجلالة في قولنا : نذرت لله ، فإنّ اللام هناك للتقرب وفي المقام لبيان المحل.

وقد اقتصرنا بالقليل من الكثير فمن أراد الوقوف على مصادر الروايات فليرجع إلى المصدر أدناه.^(٢)

وعلى ذلك سارت المذاهب الفقهية الأربعة حيث يفتنون بانتفاع الميت بعمل الحي حتى إذا لم يوص به ولم يكن له في السعي نصيب. فهذه الروايات والفتاوى تثبت ضابطة كلية وهي وصول ثواب كل عمل قربي إلى الميت إذا أُوتي به نيابة عنه سواء أكان من قبيل الصوم والحج أو غيرهما. وعلى هذا يعلم صحّة عمل المسلمين حيث يقومون بأعمال حسنة صالحة ربما أهدوا ثوابها إلى أحبائهم وأعزتهم الموتى وهو أمر يوافق عليه الكتاب والسنة ، فما يقوم به المسلمون لموتاهم من إهداء ثواب الأعمال الصالحة لهم ، أو ما يفعلونه عند قبور الأنبياء والأولياء

١. التوبة : ٦٠.

٢. لاحظ للوقوف على مصادر هذه الروايات : صحيح مسلم : ٥ / ٧٣ - ٧٨ ، كتاب النذر ؛ سنن النسائي : ٦ / ٢٥١ فضل الصدقة على الميت.

من إطعام الطعام وتسبيل الماء بنية أن يصل ثوابها إليهم إثمًا يقتدون فيها بسعد بن عباد
الذي سأل النبي ﷺ عن حكم الصدقة عن أمه أينفعها؟ فقالص : نعم ، فقال فأبي
الصدقة أفضل؟ قال : الماء فحفر بئراً ، وقال : هذه لأُم سعد.

فهم في هذا سعديون لا يريدون عبادة الموتى ، بل يريدون إيصال الثواب إليهم كما
فعل سعد.

النذر لأهل القبور

النذر عبارة عن إلزام الإنسان نفسه بالقيام بأداء عمل إذا قضيت حاجته كأن يقول :
لله عليّ أن أختتم القرآن إذا نجحت في الامتحان ، هذا هو النذر الشرعي ويعتبر أن يكون
النذر لله سبحانه ولا يجوز لغيره.

وربما يلتزم في ضمن النذر إهداء ثواب عمله إلى المقربين له كالأب والأُم أو الأنبياء
والأولياء ، فيقول : نذرت لله أن أختتم القرآن واهدي ثوابه لفلان. واللام الداخلة على لفظ
الجلالة غير اللام الداخلة على لفظة «فلان» فاللام الأولى للغاية أي لغاية التقرب إلى الله
سبحانه ، واللام الثانية لبيان موضع الانتفاع.

هذا هو المتعارف بين المسلمين يندرون عملاً لله ثم يلتزمون بإهداء ثوابه لأحد أولياء
الله وعباده الصالحين.

وربما يختصرون في العبارة ويقولون : هذه . الشاة . مندورة للنبي ﷺ ، والمراد هو جهة انتفاعه ، والقرآن الكريم مشحون بكلا الاستعمالين .

قال سبحانه حاكياً عن امرأة عمران : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾^(١) فاللام في هذه الآية نظير قولنا : «صليت لله ونذرت لله» .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾^(٢) واللام للفقراء بمعنى الانتفاع ، نظير قولنا عند الاختصار : هذا للنبي ﷺ أو للإمام عليّ عليه السلام وقد مضى أنّ سعد بن عباد لما حفر بئراً قال : هذه لأُمّ سعد .

وبذلك ظهر أنّه لا مانع من النذر للأولياء والصالحين ، على ما عرفت من تفسيره . ولأجل إيضاح الحال نأتي بكلام بعض المفكرين وعلماء الإسلام . يقول الخالدي : إنّ المسألة تدور مدار نيات الناذرين ، وإنّما الأعمال بالنيّات فإن كان قصد الناذر الميت نفسه والتقرب إليه بذلك لم يجز ، قولاً واحداً ، وإن كان قصده وجه الله تعالى وانتفاع الأحياء . بوجه

١ . آل عمران / ٣٥ .

٢ . التوبة / ٦٠ .

من الوجوه . به وثوابه لذلك المنذور له سواء عين وجهاً من وجوه الانتفاع أو أطلق القول فيه ، وكان هناك ما يطرد الصرف فيه في عرف الناس أو أقرباء الميت ، أو نحو ذلك . ففي هذه الصورة يجب الوفاء بالنذور. ^(١)

وقال العزامي في كتاب «فرقان القرآن» : «... ومن استخير حال من يفعل ذلك من المسلمين ، وجدهم لا يقصدون بذبائهم ونذورهم للأموال . من الأنبياء والأولياء . إلا الصدقة عنهم وجعل ثوابها إليهم ، وقد علموا أنّ إجماع أهل السنّة منعقد على أنّ صدقة الأحياء نافعة للأموال واصله إليهم ، والأحاديث في ذلك صحيحة مشهورة. ^(٢)

أخرج أبو داود عن ميمونة أنّ أباهما قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله انّي نذرت إن وُلد لي ذكر أن أنحر على رأس «بُؤانة» في عقبة من الشنايا ، عدّة من الغنم.

قال الراوي عنها : لا أعلم إلا أنّها قالت : خمسين.

فقال رسول الله ﷺ : هل من الأوثان شيء؟

قال : لا.

قال : أوف بما نذرت به لله. ^(٣)

١ . صلح الاخوان : للخالدي : ١٠٢ وما بعده.

٢ . فرقان القرآن : ١٣٣.

٣ . سنن أبي داود : ٢ / ٨١.

تجد أنّ النبي ﷺ يؤكّد السؤال عن وجود الأصنام في المكان الذي تذبح فيه الذبائح إنّ هذا دليل على أنّ النذر الحرام هو النذر للأصنام حيث جرت عادة أهل الجاهلية على ذلك كما قال تعالى : ﴿... وَمَا ذَبَحْ عَلَى الثُّصْبِ ... ذَلِكَمْ فَسَقٌ﴾. (١)

وكلّ من وقف على أحوال الزائرين للعتبات المقدسة ومراقدة أولياء الله الصالحين يجد أنّهم يندرون لله تعالى ولرضاه ، ويذبحون الذبائح باسمه عِزُّهُ بهدف انتفاع صاحب القبر بثوابها وانتفاع الفقراء بلحومها.

التبرك بآثار الأنبياء والصالحين

جرت سنة الله الحكيمة على إجراء فيضه إلى الناس عن طريق الأسباب العادية ، كما هو المشاهد لكل واحد منّا إلاّ أنّه سبحانه ربما يُجري فيضه عن طريق علل غير مألوفة أو خارقة للعادة لغايات مختلفة ، فتارة تكون الغاية هي الاعجاز واثبات النبوة وأخرى تكون هي اجلال الشخص وتكريمه.

أمّا الأول ، فكمالمعجز التي يأتي بها الأنبياء بإذن الله سبحانه في مقام الدعوة والتحدّي ، والقرآن يعجّ بهذا النوع من المعجزات.

وأما الثاني : فنذكر منه نموذجين :

قال سبحانه : ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى

لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. (١)

وقال سبحانه : ﴿وَهَازِي إِلَيْكَ بُحْدَ النَّحْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾. (٢)

١. آل عمران : ٣٧.

٢. مريم : ٢٥.

وما ورد في هذه الآيات من ظهور فيضه سبحانه على خاصة أوليائه إنما هو من باب الكرامة لا الإعجاز ، فلم تكن مريم عليها السلام مدعية للنبوّة حتى تتحدّى بهذه الكرامة ، بل كان تفضلاً من الله سبحانه عليها في فترات متلاحقة.

ويقرب مما ذكرنا قوله سبحانه : ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ... * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا﴾. ^(١)

ومّا لا شكّ فيه أنّ يوسف لم يكن مدعيّاً للنبوّة أمام إخوته حتى يتحدّى بهذه الكرامة ، وإنّما كان تفضلاً من الله عن هذا الطريق لإعادة بصر أبيه يعقوب.

هذه الآيات توقفنا على أنّه سبحانه : يُجري فيضه على عباده عن طريقين فتارة عن طريق الأسباب العادية ، وأخرى عن طريق أسباب غير عادية.

وأما تأثير تلكم الأسباب غير العادية كالأسباب العادية فكلّها بإذن الله سبحانه.

وعلى ضوء ذلك كان المسلمون يتبرّكون بآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يتبرّكون بشعره وبفضل وضوئه وثيابه وآنيته ومسّ جسده الشريف ، إلى غير ذلك من آثاره الشريفة التي رواها الأخيار

عن الأخيار.

فصار التبرك بما سنة الصحابة واقتدى آثارهم من نهج نهجهم من التابعين والصالحين.
قال ابن هشام في الفصل الذي عقده لصلح الحديبية : إنّ قريشاً بعثت عروة بن مسعود الثقفي إلى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه وبعد ما وقف على نية الرسول من خروجه إلى مكة رجع إلى قومه وأخبرهم بما دار بينه وبين الرسول ﷺ ، ثمّ قال : إنّ محمداً لا يتوضأ إلّا وابتدر أصحابه بماء وضوئه ، ولا يسقط من شعره شيء إلّا أخذوه ، ثمّ قال : يا معشر قريش لقد رأيت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وائيّ والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فرؤوا رأيكم. ^(١)

وقد ألف غير واحد من علماء الإسلام ما قام به الصحابة من التبرك بآثار النبي

ﷺ نذكر عناوينها :

التبرك بتحنيك الأطفال.

التبرك بالمسح والمس.

التبرك بفضل وضوئه وغسله.

التبرك بسؤر شرابه وطعامه.

١ . السيرة النبوية : ابن هشام : ٢ / ٣١٤ ، صلح الحديبية.

إنَّ تبرك الصحابة لم يقتصر على ذلك بل كانوا يتبركون بماء أدخل فيه يده المباركة ، وماء من الأنية التي شرب منها ، وبشعره ، وعرقه ، وظفره ، والقدر الذي شرب منه ، وموضع فمه ، ومنبره ، والدنانير التي أعطاها ، وقبره وجرت عادتهم على التبرك به ، ووضع الخد عليه والبكاء عنده.

وقد ألف المحقق العلامة محمد طاهر بن عبد القادر كتاباً باسم «تبرك الصحابة» ، وهو من علماء مكة المكرمة قال فيه : أجمعت صحابة النبي ﷺ على التبرك بآثار رسول الله والاهتمام في جمعها وهم الهداة المهديون والقدوة الصالحون فيتبركون بشعره وبفضل وضوئه وعرقه وثيابه وآنيته وبمسّ جسده الشريف ، وبغير ذلك ممّا عرف من آثاره الشريفة التي صحت به الأخبار عن الأخيار.

وقد وقع التبرك ببعض آثاره في عهده وأقرّه ولم ينكر عليه ، فدلّ ذلك دلالة قاطعة على مشروعيته ، ولو لم يكن مشروعاً لنهى عنه وحذّر منه.

وكما تدل الأخبار الصحيحة وإجماع الصحابة على مشروعيته تدل على قوة إيمان المتبركين وشدة محبتهم وموالاتهم ومتابعتهم للرسول الأعظم ﷺ كقول الشاعر :

أمرّ على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حبّ الديار شغفن قلبي ولكن حبّ من سكن الديارا^(١)

البدعة والاحتفال بميلاد النبي ﷺ

البدعة في اللغة بمعنى الانشاء والابداع ، وأمّا في مصطلح الفقهاء هو إدخال ما ليس من الدين في الدين ، وعدُّ ما ليس من الدين منه ، وقد أطبق المسلمون على تحريمه لإطباق الأدلة عليه وإلى المعنى المصطلح يشير صاحب القاموس ، ويقول : البدعة : الحدث في الدين بعد الإكمال أو ما استحدث في الدين بعد النبي ﷺ من الأهواء.

فالمعنى الجامع للبدعة هو الافتراء على الله ورسوله ، ونشر الافتراء بعنوان أنّه من الدين ، قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾^(١) فالآية تدل على أنّ كلّ ما ينسب إلى الله سبحانه بلا إذن منه فهو أمر محرم ، ومن أدخل في الدين ما ليس من الدين أو لا يعلم أنّه منه ، فقد افترى على الله.

وقد عدّ المفتري على الله من أظلم الناس ، قال سبحانه : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢).

١. يونس : ٥٩ .

٢. الأنعام : ٢١ .

هذا ، ودلت السنة أيضاً على حرمة البدعة ، قال رسول الله ﷺ :
 أمّا بعد ، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله ، وأفضل الهدى هدى محمد ، وشرّ الأمور
 محدثاتها ، وكلّ محدثة بدعة ، وكلّ بدعة ضلالة في النار .
 وقد أوضحه ابن حجر العسقلاني بقوله : المحدثات جمع محدثة ، والمراد بها ما أحدث
 وليس له أصل في الشرع ، ويسمى في عرف الشرع بدعة ، وما كان له أصل يدل عليه
 الشرع فليس ببدعة ، فالبدعة في عرف الشرع مذمومة .^(١)
 والروايات في تحريم البدعة كثيرة اكتفينا بما سبق ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى
 المصدر المذكور في الهامش .^(٢)
 فإذا كانت البدعة هي الافتراء على الله ورسوله والتلاعب بدينه ، وادخال ما ليس من
 الدين ، أو ما لم يُعلم أنّه من الدين في الدين ، فعلى الباحث المتضلّع تمييز ما ليس ببدعة
 عن البدعة وإن اشتركا في إطلاق تسمية «البدعة» عليهما ، وإليك أقسامها :
الأول : أن يقوم به الإنسان بما أنّه من الدين ، وهو إمّا ليس من الدين قطعاً أو
 يشك أنّه من الدين ومع ذلك يدخله فيه وينشره بين الأمة .
 وعلى هذا فلو قام أحد بعمل بديع ليس له مثيل ، ولكن من دون

١ . فتح الباري في شرح صحيح البخاري : ١٣ / ٢٥٣ .

٢ . جامع الأصول لابن الأثير : ٩ / ٥٦٦ .

أن ينسبه إلى الدين فهو ليس ببدعة ، كالصنائع الجديدة ، والألعاب الرياضية ، التي ابتدعها الإنسان لتوفير الراحة لنفسه إلى غير ذلك من الفوائد المترتبة عليها.

فهذه الصنائع والألعاب لم تكن في عصر الرسول ولا الصحابة ولا التابعين ولكن الإنسان أبدعها وأنشأها دون أن يعزوها إلى الدين ، فإذاً لا تكون بدعة.

نعم مجرد أنّها ليست بدعة لا يكون دليلاً على حليتها بل يستنبط حكمها من جهة الحلية والحرمة من الكتاب والسنة والإجماع والعقل.

فالصنائع والألعاب الرياضية من المحدثات ولكنّها حلالان شرعاً لعدم انطباق عنوان محرم عليهما ، بخلاف بعض المحدثات كاختلاط النساء والرجال في الحفلات ، فهو أمر محدث مُحَرَّم ، لانطباق عنوان محرم عليه وهو اختلاط الرجال بالنساء السافرات.

الثاني : ما يبدعه الإنسان وينشئه وليس له نظير في السابق ، ولكن يأتي به باسم الدين وله أصل كلي في الشريعة وإن لم ترد الخصوصية فيها. فهذا ما يسمّى بدعة لغة ولا يكون بدعة شرعاً.

أمّا كونه بدعة لغة فلكونه أمراً جديداً وإنشاءً حديثاً في الدين ، وأمّا أنّه ليس ببدعة شرعاً ، لوجود أصل كلي له فيها مسوغ له ، وإليك الأمثلة التالية :

أ. أنّ الدفاع عن بيضة الإسلام وصيانة حدوده من الأعداء أصل

ثابت في القرآن الكريم ، قال سبحانه : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^(١) وهذا هو الأصل الثابت في الإسلام ، وأما كيفية الدفاع فلم يرد فيها دليل خاص ، بل أوكله الشارع إلى مقتضيات الزمان فالتزود بالأسلحة الحديثة كالسفن الحربية والطائرات المقاتلة إلى غير ذلك من وسائل الدفاع ليس بدعة ، بل تجسيد للأصل الثابت في الشرع أعني : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ، فهذا النوع من التسليح ورد في الشرع أصله وإن لم يرد بخصوصياته.

ب. حث الإسلام على الإحسان إلى اليتامى والمساكين والرفقة بهم والعطف عليهم وحفظ أموالهم بيد أن هذا الأمر الكلي الذي جاء في الشرع له أساليب مختلفة تجاري مقتضيات كل عصر ومصر وإمكانياتهم المتاحة ، فاللازم امتثال ما ندب إليه الشرع ، أعني : الأصل الكلي ، وأما تبين كلفه فمتروك إلى المستجدات الزمانية.

ج. ندب الشرع المقدس إلى التربية والتعليم ومكافحة الأمية ولا شك أن لهذا الأمر الكلي أشكالاً وألواناً مختلفة تتبدل حسب تبدل الظروف حيث كانت التربية والتعليم في العصور السابقة تتحقق من خلال الكتابة بالقصب والدواة ، وجلوس المتعلم للاستماع إلى معلمه ، إلا أن ذلك تطور اليوم إلى أساليب جديدة تستخدم فيها الأجهزة المتطورة كالإذاعة والتلفزة والكمبيوتر والشرطة إلى غيرها من وسائل

التعليم الحديثة.

إنَّ الشارع المقدس لا يخالف هذا التطور ولا يمنع من استخدام الأجهزة والأساليب الحديثة ، وإنَّما أمر بالتعليم والتعلم ، وترك اتخاذ الأساليب إلى الظروف والمقتضيات . ولو كان أصرَّ على اتخاذ كيفية خاصة ، لفشل في هدفه المقدس وفقد مبررات خلوده واستمراره ، لأنَّ الظروف ربما لا تناسب الأداة الخاصة التي يقترحها والكيفية الخاصة التي يحددها .

الثالث : ما إذا قام به إنسان باسم الدين وكان أمراً حديثاً ليس له مثيل في السابق ولم يكن له أصل كلي يعضده ويسوغه ويضفي عليه الشرعية . فهذه هي البدعة المصطلحة المحرمة على الإطلاق ، فمن حاول تغيير الأذان والإقامة بتنقيص أو زيادة أو زاد في الصلاة أو نقص منها ونسب كل ذلك إلى الشرع فهو بدعة محرمة .

وبالجملة من أراد التدخل في الشريعة الإسلامية في عباداتها ومعاملاتها وسياساتها بأن ينسب إليها ما ليس منها أو لم يعلم أنه منها فقد أبدع وافترى على الله الكذب .

الاحتفال بمواليد الأنبياء والأئمة والصالحين

ومّا ذكرنا يعلم حكم الاحتفال بمواليد الأنبياء والأئمة

والصالحين الذين لهج الكتاب والسنة بمدحهم ، فإن الاحتفال على النحو الرائج لم يرد في الشرع بخصوصه ولكن ورد الأصل الكلي الذي يسوّغ هذا الاحتفال ويضفي عليه الشرعية.

فقد أمر الكتاب والسنة بحب النبي ﷺ ووده أولاً وتكريمه وتوقيره ثانياً ، وحثّ عليهما في الشريعة قال سبحانه : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. (١)

١. وقال رسول الله ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين. (٢)

٢. قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ الناس إليه من والده وولده. (٣)

٣. قال رسول الله ﷺ : ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه : أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما وأن يحب في الله ، ويبغض في الله ، وأن توقد نار عزيمة فيقع فيها أحبّ إليه من أن يشرك بالله شيئاً. (٤)

١. التوبة : ٢٤.

٢ و ٣ و ٤. جامع الأصول : ١ / ٢٣٧ - ٢٣٨ برقم ٢٠ و ٢١ و ٢٢.

وعلى ضوء ذلك فاقامة الاحتفالات والمهرجانات في مواليدهم والقاء الخطب والقصائد في مدحهم وذكر منزلتهم في الكتاب والسنة تجسيد للحب الذي أمر الله ورسوله به ، شريطة أن لا تقتزن تلك الاحتفالات بالحرام ، ومن دعا إلى الاحتفال بمولد النبي ﷺ في أي قرن من القرون فقد انطلق من هذا المبدأ أي حب النبي ﷺ الذي أمر به القرآن والسنة.

هذا هو مؤلف «تاريخ الخميس» يقول في هذا الصدد : لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ويعملون الولائم ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات ، ويظهرون السرور ويزيدون في المبرات ويعتنون بقراءة مولده الشريف ويظهر عليهم من كراماته كل فضل عظيم.^(١)

وقال القسطلاني : ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ص يعملون الولائم ، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات ، ويظهرون السرور ، ويزيدون المبرات ، ويعتنون بقراءة مولده الكريم ، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عظيم ... فرحم الله امرء اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً ليكون أشد علة على من في قلبه مرض وأعياء داء.^(٢)

١. تاريخ الخميس : ١ / ٣٢٣ للديار بكري.

٢. المواهب اللدنية : ١ / ٢٧.

البكاء على الميت

الحزن والتأثر عند فقدان الأحبة أمر جُبلت عليه الفطرة الإنسانية فإذا ابتلي بمصاب عزيز من أعزائه أو فلذة من أفلاذ كبده وأرحامه يحس بحزن شديد يتعقبه ذرف الدموع على وجناته ، دون أن يستطيع أن يتمالك حزنه أو بكاءه.

ولا أجد أحداً ينكر هذه الحقيقة إنكار جدي وموضوعية ومن الواضح بمكان أنّ الإسلام دين الفطرة يجاريها ولا يخالفها.

قال سبحانه : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾. (١)

ولا يمكن لتشريع عالمي أن يحرم الحزن والبكاء على فقد الأحبة ويحرم عليه البكاء إذا لم يقتزن بشيء يغضب الرب.

ومن حسن الحظ نرى أنّ النبي ﷺ والصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان ساروا على وفق الفطرة.

وهذا رسول الله ﷺ يبكي على ولده إبراهيم ، ويقول : «العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلّا ما يرضي ربنا ، وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون». (٢)

١. الروم : ٣٠.

٢. سنن أبي داود : ١ / ٥٨ ؛ سنن ابن ماجه : ١ / ٤٨٢.

روى أصحاب السِّيَر والتَّارِيخ ، أَنَّهُ لَمَّا احْتَضَرَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ النَّبِيِّ ، جَاءَ ﷺ فَوَجَدَهُ فِي حَجَرٍ أُمِّهِ ، فَأَخَذَهُ وَوَضَعَهُ فِي حَجَرِهِ ، وَقَالَ : « يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا لَنُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً . ثُمَّ ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ وَقَالَ : . إِنَّا بَكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لِحُزُونٍ ، تَبْكِي الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ وَلَا نَقُولُ مَا يَسْخَطُ الرَّبَّ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ أَمَرَ حَقٌّ وَوَعَدُ صَدَقٌ وَأَتَمَّا سَبِيلُ مَأْتِيَةِ حُزْنًا عَلَيْكَ حُزْنًا شَدِيداً أَشَدَّ مِنْ هَذَا» .

ولمَّا قَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ : أَوْ لَمْ تَكُنْ نَهَيْتَ عَنِ الْبُكَاءِ؟ أَجَابَ بِقَوْلِهِ : « لَا ، وَلَكِنْ نَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ وَآخَرَيْنِ ، صَوْتٌ عِنْدَ مُصِيبَةٍ وَخَمْسٌ وَجْوهٌ وَشَقٌّ جَيُوبٍ وَرَنَّةٌ شَيْطَانٍ ، وَصَوْتُ عَنْ نِعْمَةٍ لَّهُوَ ، وَهَذِهِ رَحْمَةٌ ، وَمَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ» .^(١)

وَلَيْسَ هَذَا أَوَّلُ وَآخِرَ بُكَاءٍ مِنْهُ ﷺ عِنْدَ ابْتِلَائِهِ بِمَصَابِ أَعْزَائِهِ ، بَلْ كَانَ ﷺ بَكَى عَلَى ابْنِهِ «طَاهِرٍ» وَيَقُولُ : « إِنَّ الْعَيْنَ تَذْزِفُ وَإِنَّ الدَّمَعَ يَغْلِبُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَعْصِي اللَّهَ عَزَّجَلًا » .^(٢)

وَقَدْ قَامَ الْعَلَّامَةُ الْأَمِينِي فِي مُوسُوَعَتِهِ الْكَبِيرَةِ «الْغَدِيرِ» بِجَمْعِ مَوَارِدٍ كَثِيرَةٍ بَكَى فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ وَالصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ عَلَى مَوْتِهِمْ وَأَعْزَائِهِمْ عِنْدَ افْتِقَادِهِمْ ، وَإِلَيْكَ نَصٌّ مَا جَاءَ بِهِ ذَلِكَ الْمُتَتَبِعُ الْخَبِيرُ .

وَهَذَا هُوَ ﷺ لَمَّا أُصِيبَ حَمْزَةً . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَجَاءَتْ صَفِيَّةُ بِنْتُ

١ . السيرة الخلبية : ٣ / ٣٤٨ .

٢ . مجمع الزوائد للهيتمي : ٣ / ٨ .

عبد المطلب . رضي الله عنه . تطلبه فحال بينها وبينه الأنصار ، فقال ﷺ : دعوها ، فجلست عنده فجعلت إذا بكت بكى رسول الله ﷺ وإذا نشجت نَشَجَ ، وكانت فاطمة عليها السلام تبكي ، ورسول الله كلما بكت يبكي ، وقال : لن أصاب بمثلك أبداً .^(١)

ولما رجع رسول الله ﷺ من أحد بكت نساء الأنصار على شهدائهن ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : لكن حمزة لا بواكي له ، فرجع الأنصار فقالوا لنسائهم : لا تبكين أحداً حتى تبدأن بحمزة ، قال : فذاك فيهم إلى اليوم لا يبكين ميتاً إلا بدأن بحمزة .^(٢)

وهذا هو ﷺ ينعي جعفرأ ، وزيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة ، وعيناه تذرفان .^(٣)

وهذا هو ﷺ زار قبر أمه وبكى عليها وأبكى من حوله .^(٤)

وهذا هو ﷺ يقبل عثمان بن مظعون وهو ميت ودموعه تسيل على خده .^(٥)

وهذا هو ﷺ يبكي على ابن لبعث بناته ، فقال له عبادة بن

١ . امتاع المقرئ : ص ١٥٤ .

٢ . مجمع الزوائد : ٦ / ١٢٠ .

٣ . صحيح البخاري : كتاب المناقب في علامات النبوة في الإسلام ؛ سنن البيهقي : ٤ / ٧٠ .

٤ . سنن البيهقي : ٤ / ٧٠ ؛ تاريخ الخطيب البغدادي : ٧ / ٢٨٩ .

٥ . سنن أبي داود : ٢ / ٦٣ ؛ سنن ابن ماجه : ١ / ٤٤٥ .

الصامت : ما هذا يا رسول الله ﷺ ؟ قال : الرحمة التي جعلها الله في بني آدم وإنما يرحم الله من عباده الرحماء. (١)

وهذه الصديقة الطاهرة تبكي على رسول الله ﷺ ، وتقول : يا أبتاه من ربّه ما أدناه ، يا أبتاه أجاب ربّاً دعاه ، يا أبتاه إلى جبرئيل نعاها ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه. (٢)
وهذه هي . سلام الله عليها . وقفت على قبر أبيها الطاهر ، وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينها وبكت وأنشأت تقول :

ماذا على مَنْ شَمَّ تربة أحمد ن لا يشمّ مدى الزمان غواليها
صُبَّتْ عليّ مصائبٌ لو أنّها صُبَّتْ على الأيامِ صِرْنَ لياليها
وهذا أبو بكر بن أبي قحافة يبكي على رسول الله ﷺ ويرثيه بقوله :
يا عين فابكي ولا تسأمي وحُقَّ البكاء على السيّد
وهذا حسان بن ثابت يبكيه ﷺ ويقول :
ظلمت بها أبكي الرسول فأسعدت عيونٌ ومثلاها من الجفن أسعد

١ . سنن أبي داود : ٢ / ٥٨ ؛ سنن ابن ماجه : ١ / ٤٨١ .

٢ . صحيح البخاري ، باب مرض النبي ووفاته ؛ مسند أبي داود : ٢ / ١٩٧ ؛ سنن النسائي : ٤ / ١٣ ؛

مستدرک الحاكم : ٣ / ١٦٣ ؛ تاريخ الخطيب : ٦ / ٢٦٢ .

ويقول :

يُكُونُ مَنْ تَبْكِي السَّمَاوَاتُ يَوْمَهُ وَمَنْ قَدْ بَكَتَهُ الْأَرْضُ فَالْنَّاسُ أَكْمَدُ

ويقول :

يَا عَيْنَ جُودِي بَدَمْعِ مَنْكَ إِسْبَالٌ وَلَا تَمْلَنَّ مِنْ سَحَّ وَإِعْوَالِ

وهذه «أروى» بنت عبد المطلب تبكي عليه ﷺ وترثيه بقولها :

أَلَا يَا عَيْنَ! وَيْحَكَ أَسْعِدْنِي بِدَمْعِكَ مَا بَقِيَتْ وَطَاوَعْنِي

أَلَا يَا عَيْنَ! وَيْحَكَ وَاسْتَهْلِي عَلَى نَوْرِ الْبِلَادِ وَاسْعِدْنِي

وهذه عاتكة بنت عبد المطلب ترثيه وتقول :

عَيْنِي جُودًا طَوَالَ الدَّهْرِ وَانْهَمِرَا سَكْبًا وَسَحًّا بِدَمْعٍ غَيْرِ تَعْذِيرِ

يَا عَيْنَ فَاسْخَنْفِرِي بِالْذَّمِّ وَاحْتَفَلِي حَتَّى الْمَمَاتِ بِسَجَلٍ غَيْرِ مَنْذُورِ

يَا عَيْنَ فَانْهَمِلِي بِالذَّمِّ وَاجْتَهْدِي لِلْمَصْطَفَى دُونَ خَلْقِ اللَّهِ بِالنُّورِ

وهذه صفية بنت عبد المطلب تبكي عليه وترثيه ﷺ وتقول :

أفـاطـمُ بـكـي ولا تـسـأـمي بـصـحـبـك ما طـلـع الكـوكـبُ
هـو المـرء يُـبـكـي وحقّ البـكـاء هـو المـاجـد السـيـد الطـيـب
وتقول :

أعـيـني! جـودا بـدمـع سـجـم يـيـادر غـرباً بـما مـنـهـدم
أعـيـني! فـاسـحـنـفـرا وأـسـكـبا بـوجـدٍ وـحـزنٍ شـديـد الأـلم
وهذه هند بنت الحارث بن عبد المطلب تبكي عليه وترثيه وتقول :

يا عـين جـودـي بـدمـع مـنـك وابتـدرـي كـما تـنـزـل مـاء الغـيـث فـانـثـعـبا
وهذه هند بنت أثاثة ترثيه وتقول :

ألا يا عـين! بـكـي لا تـمـلـي فـقـد بـكر النـعـي بـمن هـويـتُ
وهذه عاتكة بنت زيد ترثيه وتقول :

وأـمـسـت مـراكـبـه أـوحـشـت وـقـد كـان يـركـبـها زـينـها
وأـمـسـت تُـبـكـي عـلى سـيـد تـرـدّد عـبرـتـها عـينـها

وهذه أم أيمن ترثيه ﷺ وتقول :

عين جودي فإنّ بذلك للدم . ع شفاء فاكثري من بكاء
بدموع غزيرة منك حتى يقضي الله فيك خير القضاء
وهذه عمّة جابر بن عبد الله جاءت يوم أُخذ تبكي على أخيها عبد الله بن عمر ،
وقال جابر : فجعلتُ أبكي وجعل القوم ينهوني ورسول الله ﷺ لا ينهاني ، فقال رسول
الله ﷺ : أبكوه ولا تبكوه فوالله ما زالت الملائكة تظللّه بأجنحتها حتى دفنتموه. (١)
نعم روي عن عمر بن الخطّاب وعبد الله بن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال : «إنّ
الميت يعذب ببكاء أهله». (٢)

أقول : إنّ ظاهر هذا الحديث يخالف فعل الخليفة في مواطن كثيرة أثبتّها التاريخ.
منها : أنّه بكى على النعمان بن مقرن المزني لَمّا جاءه نعيه فخرج ونعاه إلى الناس
على المنبر ووضع يده على رأسه يبكي. (٣)
ومنها : بكاءه على خالد بن الوليد عند ما مات وامتنعت النساء

١. العدير : ٦ / ١٦٤ . ١٦٧ .

٢. صحيح مسلم : ٣ / ٤١ . ٤٤ ، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه من كتاب الصلاة.

٣. العقد الفريد لابن عبد ربّه الأندلسي : ٣ / ٢٣٥ .

من البكاء عليه ، فلما انتهى ذلك إلى عمر ، قال : وما على نساء بني المغيرة أن يرقن من دمعهنّ على أبي سليمان ما لم يكن لغواً ولا لقلقة. ^(١)

ومنها : بكاءه على أخيه زيد بن الخطّاب ، وكان صحبه رجل من بني عدي بن كعب فرجع إلى المدينة فلما رآه عمر دمعت عيناه ، وقال : وخلفت زيدا قاضياً وأتيتني. ^(٢)

فالبكاء المتكرّر من الخليفة يهدينا إلى أنّ المراد من الحديث . لو صحّ سنده . معنى آخر ، كيف وأنّ ظاهر الحديث لو قلنا به فإنّه يخالف الذكر الحكيم ، أعني قوله سبحانه : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. ^(٣) فأَيّ معنى لتعذيب الميت ببكاء غيره عليه!!

فقه الحديث

كلّ هذه النقول توقّفنا على أنّ المراد من الحديث «إنّ الميت يعذب...». إن صحّ سنده . غير ما يفهم من ظاهره ، وقد كان محتقناً بقرائن سقطت عند النقل ، ولأجل ذلك توهم البعض حرمة البكاء على الميت استناداً إلى هذا الحديث ، غافلاً عن مرمى الحديث ومغزاه.

١ . العقد الفريد : ٣ / ٢٣٥ .

٢ . المصدر نفسه .

٣ . فاطر / ١٨ .

أخرج مسلم في صحيحه ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : ذكر عند عائشة قول ابن عمر : الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، فقالت : رحم الله أبا عبد الرحمن ، سمع شيئاً فلم يحفظه إنما مرّت على رسول الله ﷺ جنازة يهودي ، وهم ييكون عليه ، فقال : أنتم تبركون والله ليعذب. (١)

وأخرج أبو داود في سننه عن عروة عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : إنما الميت ليعذب ببكاء أهله عليه ، فذكر ذلك لعائشة فقالت . وهي تعني ابن عمر . : إنما مرنبي ﷺ على قبر يهودي فقال : إن صاحب هذا ليعذب وأهله ييكون عليه . ثم قرأت ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. (٢)

قال الشافعي : ما روت عائشة عن رسول الله ﷺ أشبه أن يكون محفوظاً عنه ﷺ بدلالة الكتاب والسنة ، فإن قيل : فأين دلالة الكتاب؟ قيل : في قوله عزّ وجلّ : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى...﴾ و ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣) وقوله : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٤) وقوله : ﴿... لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا

١. صحيح مسلم : ٣ / ٤٤ ، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه من كتاب الصلاة.

٢. سنن أبي داود : ٣ / ١٩٤ ، برقم ٣١٢٩.

٣. النجم : ٣٩.

٤. الزلزلة : ٧ . ٨.

تَسْعَى ﴿١﴾ فإن قيل : أين دلالة السّنة؟ قيل : قال رسول الله ﷺ لرجل : ابنك هذا؟ قال : نعم ، قال : أما أنّه لا يجني عليك ولا تجني عليه . فأعلم رسول الله ﷺ مثلما أعلم الله من أنّ جناية كلّ امرئ عليه ، كما أنّ عمله لا لغيره ولا عليه. ﴿٢﴾

وأخرج مسلم عن ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : إنّ الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، فقال ابن عباس : فلمّا مات عمر ذكرت ذلك لعائشة ، فقالت : يرحم الله عمر ، لا والله ما حدّث رسول الله ﷺ أنّ الله يعذب المؤمن ببكاء أحد ولكن قال : إنّ الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه ، قال : وقالت عائشة : حسبكم القرآن : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. ﴿٣﴾

وما أخرجه مسلم عن هشام بن عروة هو الحقّ دون ما أخرجه عن ابن عباس لأنّ تعذيب الكافر ببكاء أهله عليه أيضاً يضاد الذكر الحكيم.

١. طه. / ١٥.

٢. اختلاف الحديث بhamش كتاب الأمّ للشافعي : ٧ / ٢٦٧.

٣. صحيح مسلم : ٣ / ٤٣ ، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه من كتاب الصلاة.

١٠

الحلف على الله بحق الأولياء

إنّ القرآن الكريم يصف بعض عباده الله ، بقوله :

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾. ^(١)

فلو أنّ أحداً قام في آناء الليل وصلّى ناشئته ثمّ ابتهل إلى الله متضرعاً ، وقال :

«اللهمّ إنّي أسألك بحقّ المُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ اغفر لي ذنبي» فهل يجوز ذلك أو لا؟

يمكن استكشاف الحكم من الأحاديث المروية عن النبي ﷺ والأئمة الأطهار.

١. قد أخرج الترمذي وابن ماجة والإمام أحمد عن عثمان بن حنيف : أنّ رجلاً

ضرباً أتى النبي ﷺ وقال : أدعو الله أن يعافيني ، ثمّ نقلوا أنّ النبي ﷺ أمره أن يتوضّأ

ويُحسن وضوءه ويصلّي ركعتين ويدعوا بهذا الدعاء : «اللهمّ إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيك

نبيّ الرحمة ، يا محمد

- إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى اللهم شقعه في». (١)
٢. وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ الدعاء التالي : «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشي هذا». (٢)
٣. أخرج البيهقي عن عمر بن الخطاب ، قال : قال رسول الله ﷺ : لما اقترب آدم الخطيئة رفع رأسه إلى السماء فقال : أسألك بحق محمد الا غفرت لي. (٣)
٤. أخرج الحاكم في مستدركه ، والطبراني في معجمه الأوسط ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ، عن أنس بن مالك ، أنه لما ماتت فاطمة بنت أسد ، حفروا قبرها ، فلما بلغوا اللحد ، حفره رسول الله ﷺ بيده ، وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ ، دخل رسول الله ﷺ فاضطجع فيه ، وقال : الله الذي يحيي ويميت ، وهو حي لا يموت ، اغفر لأُمِّي فاطمة بنت أسد ، ولقنها حجتها ووسّع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فانك أرحم الرحمين. (٤)

١. صحيح الترمذي ٥ ، كتاب الدعوات ، الباب ١١٩ برقم ٣٥٧٨ ؛ سنن ابن ماجه : ١ / ٤٤١ برقم ١٣٨٥ ؛ مسند أحمد : ٤ / ١٣٨ ، إلى غير ذلك من المصادر ، وقد مرّ في مبحث التوسل .

٢. سنن ابن ماجه : ١ / ٢٥٦ برقم ٧٧٨ ، باب المساجد ؛ مسند أحمد : ٣ / ٢١ .

٣. البيهقي : دلائل النبوة : ٥ / ٤٨٩ .

٤. الحاكم : المستدرک : ٣ / ١٠٨ ؛ الطبراني ، المعجم الأوسط : ٣٥٦ ؛ حلية الأولياء : ٣ / ١٢١ .

إنّ هذه الأدعية وإن خلت من لفظ القسم بعينه إلا أنّها تضمنت معنى القسم لوجود باء القسم فيها فكأنّما يقول : اللهمّ إني أسألك بحقّ السائلين عليك أي أقسمك بحقّهم. وقد ورد الحلف على الله بحقّ الأولياء في غير واحد من أدعية أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين هم أعدال الكتاب وقرناؤه بنصّ النبي صلى الله عليه وآله حيث قال : «إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي». ^(١) يقول الإمام الطاهر الحسين بن علي «عليهما السلام» في دعاء يوم عرفة وهو يناجي ربّه : «بحقّ من انتخبت من خلقك ، وبمن اصطفتيّه لنفسك ، بحقّ من اخترت من بريّتك ، ومن اجتبيت لشأنك ، بحقّ من وصلت طاعته بطاعتك ، وبحقّ من نيّطت معاداته بمعاداتك». ^(٢)

لما زار الإمام الصادق عليه السلام مرقد جدّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام دعا في ختام الزيارة بقوله : اللهمّ استجب دعائي ، واقبل ثنائي ، وأجمع بيني وبين أوليائي ، بحقّ محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين». ^(٣) وهذه الأدعية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تدلّ على جواز الحلف على الله بحقّ أوليائه الصالحين.

١. حديث متواتر عن كلا الفريقين.

٢. ابن طاووس : الاقبال : ٣٠٩.

٣. الطوسي : مصباح المتعبد : ٦٨٢.

سؤال وإجابة

ربما يقال : انّ المسألة بحق المخلوقين غير جائز لأنّه لا حقّ للمخلوق على الخالق.
والجواب أولاً : انّ هذا اجتهد في مقابل النص الصريح ، إذ لو لم يكن للمخلوق حقّ
في ذمة الخالق ، فلماذا أقسم النبي آدم ﷺ والنبي محمد ﷺ على الله بالحقوق ، الواردة
في الروايات؟

وثانياً : أنّه سبحانه يثبت لعباد الله الصالحين حقوقاً في ذمته ، ويقول : ﴿وَكَانَ حَقًّا
عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) ، ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوَارَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾^(٢) ، ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا
نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) ، ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾^(٤).

وثمة مجموعة من الروايات تشير إلى وجود الحقّ للمخلوق في ذمة الخالق ، وإليك
نماذج منها :

١. «حقّ على الله عون من نكح التماس العفاف ممّا حرم الله». ^(٥)

٢. قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة حقّ على الله عوئهم : الغازي في

١. الروم : ٤٧ .

٢. التوبة : ١١١ .

٣. يونس : ١٠٣ .

٤. النساء : ١٧ .

٥. الجامع الصغير للسيوطي : ٢ / ٣٣ .

سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد التعفف».(١)

٣. «أتدري ما حق العباد على الله».(٢)

نعم من الواضح أنه ليس لأحد بذاته حق على الله تعالى ، حتى لو عبد الله قروناً طويلة ، لأنّ كلّ ما للعبد من حول وقوة ، ونعمة فهو لله تعالى فلم يُبدل العبد شيئاً من نفسه في سبيل الله حتى يستحق بذاته الثواب.

فإذاً فما معنى الحقّ؟

والجواب : إنّ المقصود من الحقّ في هذه الأدعية أو الأحاديث هو المنزلة التي يمنحها الله لعباده مقابل طاعتهم وانقيادهم ، لكن بتفضّل وعناية منه ، لا بإستحقاق من العبد ، فالحقّ الذي يُقسّم به على الله حق ، جعله الله على ذمته لا أنّ العبد استحق حقاً على الله ، ونظير هذا استقراضه سبحانه من عبده ، يقوله : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾.

(٣)

إنّ هذا التعبير نابع من لطفه سبحانه وعنايته الفائقة بعباده الصالحين حتى يعتبر ذاته المقدسة مديوناً لعباده ، وعبادته دُيَّناً لأصحاب الحق ، ففي هذا الأمر من الترغيب والتشجيع إلى طاعة الله ما لا يخفى.

١. سنن ابن ماجه : ٢ / ٨٤١.

٢. النهاية لابن الأثير : مادة حق.

٣. البقرة : ٢٤٥.

الحلف بغير الله

هل يجوز الحلف بغير الله سبحانه كالحلف بالنبي ﷺ والقرآن والكعبة وغيرها من المقدسات أو لا؟

عندما نستنطق القرآن في ذلك ، نرى أنه سبحانه حلف في سورة الشمس وحدها بثمانية أشياء من مخلوقاته هي : الشمس ، ضحاها ، القمر ، النهار ، الليل ، السماء ، الأرض ، والنفس الإنسانية. ^(١)

وكذلك ورد الحلف بغير الله في سورة النازعات والمرسلات والطارق والقلم والعصر والبلد وإليك نماذج من الحلف بالمخلوق في غير تلك السور.

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ* وَطُورِ سِينِينَ* وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾. ^(٢)

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾. ^(٣)

﴿وَالْفَجْرِ* وَلَيْالٍ عَشْرٍ* وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ* وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾. ^(٤)

١ . الشمس : ١ - ٧.

٢ . التين : ١ - ٣.

٣ . الليل : ١ - ٢.

٤ . الفجر : ١ - ٤.

﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ *
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ (١)

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. (٢)

فلو كان الحلف بغير الله شركاً وأمرًا قبيحاً ، فكيف يصدر منه سبحانه وقد وصف
الشرك بالفحشاء ، وقال : ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. (٣)

والقبيح قبيح مطلقاً دون فرق بين ارتكابه من قبل الخالق أو المخلوق ، وهذا يُعرب
عن أنّ الحلف بغير الله سبحانه إذا كان لغاية عقلائية أمر لا محذور فيه.
ثم إنّ الغاية - غالباً - من حلفه سبحانه بالأُمور الكونية هي الإشارة إلى الأسرار المكنونة
فيها ودعوة الناس إلى الامعان فيها وكشف رموزها ، ولكن الغاية في حلف الإنسان بالذوات
القدسية . وراء الإشارة إلى قدسيتهم . هي اما الترغيب أو التهيب أو كسب ثقة المقابل.
وإذا عطفنا النظر إلى السنة النبوية نجد أنّ رسول الله ﷺ يحلف

١ . الطور : ٦٠١ .

٢ . الحجر : ٧٢ .

٣ . الأعراف : ٢٨ .

بغير الله سبحانه.

أخرج مسلم في صحيحه : عن أبي هريرة ، قال :

«جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال : أما

. وأبيك . لتنبأته أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل البقاء». (١)

وأخرج أيضاً عن طلحة بن عبيد الله ، قال : «جاء رجل إلى رسول الله . من نجد .

يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : خمس صلوات في اليوم والليل .

فقال : هل عليّ غيرهن؟

قال : لا ... الا أن تطوع ، وصيام شهر رمضان .

فقال : هل عليّ غيرها؟

قال : لا ... الا ان تطوع ، وذكر له رسول الله الزكاة .

فقال الرجل : هل عليّ غيره؟

قال : لا ... الا أن تطوع .

فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه .

فقال رسول الله : أفلح . وأبيه . (٢) إن صدق .

١ . صحيح مسلم : ٣ / ٩٤ ، باب أفضل الصدقة من كتاب الزكاة .

٢ . أي : قسماً بأبيه ، و «الواو» للقسم .

أو قال : دخل الجنة . وأبيه . إن صدق .^(١)
وثمة أحاديث أخرى طوينا الكلام عن ذكرها مخافة الإطالة.

سؤال وجواب

أخرج النسائي في سننه ، عن ابن عمر : أنّ رسول الله ﷺ قال : من حلف بغير الله فقد أشرك .^(٢)

ومعه كيف يجوز الحلف بغير الله سبحانه؟

والجواب : أنّ رسول الله ﷺ يشير في قوله هذا إلى نوع خاص من الحلف الرائج في ذلك العصر وهو الحلف بالأصنام كالللات والعزى ، ويدل على ذلك ما أخرجه النسائي أيضاً في سننه عن النبي ﷺ أنه قال : «من حلف ، فقال في حلفه باللات والعزى ، فليقل لا إله إلا الله» .^(٣)

وأخرج أيضاً عن النبي ﷺ قال : لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد .^(٤)
إنّ الحديث الأول يكشف عن أنّ رواسب الجاهلية ما زالت عالقة في بعض النفوس ، فكانوا يحلفون بأصنامهم ، فأمرهم النبي ﷺ أن يقولوا بعد الحلف «لا إله إلا الله» ، لأجل القضاء على تلك الخلفيات.

١ . صحيح مسلم : ١ / ٣٢ ، باب «الإسلام ما هو وبيان خصاله» من كتاب الإيمان .

٢ و ٣ و ٤ . سنن النسائي : ٧ / ٨ .

كما أنّ الحديث الثاني يشير إلى أنّ وجه المنع عن الحلف بالآباء والأُمّهات لشركهم ويؤيد ذلك اقتراحها بقوله ولا بالانداد ، والمراد منها هي الأصنام والأوثان. ويظهر من كثير من الفقهاء جواز الحلف بغير الله غير أنّهم اختلفوا في وجوب الكفارة عند الحنث ، وهذا يعرب عن تصاققهم على جواز الحلف وإنّما الاختلاف في انعقاده وكفارته ، وإليك بعض النصوص :

قال ابن قدامة : الحلف بالقرآن أو بآية منه أو بكلام الله يمين منعقدة تجب الكفارة بالحنث فيها ، وبهذا قال ابن مسعود ، والحسن وقتادة ومالك والشافعي وأبو عبيد وعامة أهل البيت.

وقال أبو حنيفة : وأصحابه ليس يمين ولا تجب به كفارة. ^(١)

وقال ابن قدامة في موضع آخر : ولا تنعقد اليمين بالحلف بمخلوق والأنبياء وسائر المخلوقات ولا تجب الكفارة بالحنث فيها ، وهذا ظاهر كلام الخرقي وهو قول أكثر الفقهاء ، وقال أصحابنا : الحلف برسول الله يمين موجبة للكفارة. ^(٢)

نعم اتّفق الفقهاء على أنّه لا تُفُضُّ الخصومات عند القاضي إلّا بالحلف بالله.

١. المغني : ١١ / ١٩٣ ، كتاب اليمين.

٢. المصدر نفسه : ١١ / ٢٠٩.

١٢

تسمية المواليد بإضافة العبد

إلى غير الله سبحانه

لقد تعارف لدى المسلمين تسمية أولادهم بعبد الرسول وعبد الحسين وما ضاهاهما ويجمع الكلّ اضافته إلى أسماء الرسول وأئمة الإسلام. وربما وقع ذلك ذريعة للسؤال عن جوازه ، فنقول :
تطلق العبودية ويراد منها أحد المعاني التالية :
١ . العبودية هي التي تقابل الألوهية ، وهي بهذا المعنى ناشئة من المملوكية التكوينية التي تعمّ جميع العباد ، ومنشأ المملوكية كونه سبحانه خالقاً ، والإنسان مخلوقاً.
وعلى ضوء ذلك فالعبودية إذا كانت رمزاً للمملوكية الناشئة من الخالقية ، فهي لا تضاف إلّا إلى الله سبحانه كما يقول سبحانه : ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا اتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾^(١).

وقال سبحانه حاكياً عن المسيح : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾. ^(١)

٢. العبودية الوضعية الناشئة من غلبة إنسان على إنسان في الحروب وقد أمضاها الشارع تحت ظل شرائط معينة مذكورة في الفقه.

فأمر الاسارى . الذين يقعون في الأسر بيد المسلمين . موكول إلى الحاكم الشرعي فهو مخير بين إطلاق سراحهم بلا عوض أو بأخذ مال منهم أو استرقاقهم.

فإذا اختار الثالث فيكون الأسير عبداً للمسلم ، ولذلك ترى أنّ الفقهاء عقدوا باباً باسم «العبيد والاماء».

قال سبحانه : ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا

فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ^(٢)

تجد أنّه سبحانه ينسب العبودية والإمائية إلى الذي يملكونهم ويقول «عبادكم وإمائكم» فيضيف العبد إلى غير اسمه جلّ ذكره.

٣. العبودية بمعنى الطاعة وبها فسرّها أصحاب المعاجم. ^(٣)

وهذا هو المقصود من تلك الاسماء فيسمون أولادهم باسم عبد الرسول أي مطيع الرسول وعبد الحسين أي مطيعه وكلّ مسلم مطيع

١. مريم : ٣٠.

٢. النور : ٣٢.

٣. لسان العرب : مادة عبد ، وكذلك القاموس المحيط في نفس المادة.

لِلرَّسُولِ وَالْأَئِمَّةِ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا شَكَّ أَنَّهٗ يَجِبُ إِطَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَوَّلِي الْأَمْرِ.

قال سبحانه : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. (١)

فعرف القرآن النبي مطاعاً والمسلمين مطيعين ، ولا عتب على الإنسان أن يظهر هذا المعنى في تسمية أولاده وأفلاذ كبده.

نعم المسمى بعبد الرسول هو عبد للرسول وفي الوقت نفسه عبد لله أيضاً ولا منافاة بين النسبتين لما عرفت من أنّ العبودية في الصورة الأولى هي العبودية التكوينية النابعة من الخالقية ولكنها في الصورة الثانية ناجمة عن تشريعه سبحانه حيث جعل النبي مطاعاً وأمر الناس بطاعته وشتان ما بينهما.

والحمد لله ربّ العالمين

جعفر السبحاني

قم . الجامعة الإسلامية

فهرس المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. احياء علوم الدين : أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (المتوفى ٥٠٥ هـ) طبع دار القلم ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، صحح باشراف الشيخ عبدالعزيز السيروان.
٣. أخبار مدينة الرسول : طبع مكة المكرمة ١٣٦٦ ، اهتم بنشره صالح محمد جمال.
٤. اختلاف الحديث بهامش كتاب الأم : الشافعي : محمد بن إدريس (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) دار المعرفة ، بيروت . ١٤٠٨ هـ.
٥. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري : أبو العباس أحمد بن محمد القسطلاني (٨٥١ - ٩٢٣ هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
٦. الاقبال : ابن طاووس : علي بن موسى الحلبي (المتوفى ٦٤٤ هـ) طبع تبريز.
٧. الأم : الشافعي ، محمد بن إدريس (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) طبع دار المعرفة ، بيروت . ١٤٠٨ هـ.

٨. امتاع الأسماع : أحمد بن علي المقرئ (المتوفى ٨٤٥ هـ) دار الأنصار ، القاهرة .
١٤٠١ هـ .
٩. أنساب الأشراف : البلاذري : أحمد بن يحيى (المتوفى ٢٧٩ هـ) مؤسسة الأعلمي ،
بيروت . ١٣٩٤ هـ .
١٠. بحار الأنوار : محمد باقر المجلسي (المتوفى ١١١٠ هـ) مؤسسة الوفاء ، بيروت .
١٤٠٣ هـ .
١١. بلوغ الإرب : السيد محمود شكري الألوسي (المتوفى ١٢٧٠ هـ) دارالكتاب
العربي ، مصر .
١٢. تاريخ ابن عساكر (تاريخ مدينة دمشق) : علي بن الحسن بن هبة الله (٥٠٠ .
٥٧٣ هـ) دار التعارف ، بيروت . ١٣٩٥ هـ .
١٣. تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي ، أحمد بن علي (المتوفى ٤٦٣ هـ) المكتبة
السلفية ، المدينة المنورة .
١٤. تاريخ الخميس : الديار بكري ، الشيخ حسين بن محمد ، مؤسسة شعبان ،
بيروت .
١٥. تبرك الصحابة : محمد طاهر المكي (كان حياً عام ١٣٩٥ هـ)
١٦. تذكرة الفقهاء : العلامة الحلّي (٦٤٨ . ٧٢٦) طبع المكتبة المرتضوية لإحياء
الآثار الجعفرية ، إيران .
١٧. تفسير الدر المنثور : جلال الدين السيوطي (٨٤٩ . ٩١١ هـ) دارالفكر ،
بيروت . ١٤٠٣ هـ .

١٨. تفسير الطبري (جامع البيان) : محمد بن جرير الطبري (المتوفى ٣١٠ هـ) دار المعرفة ، بيروت.
١٩. تفسير القرطبي (جامع أحكام القرآن) : محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (المتوفى ٦٧١ هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت . ١٤٠٥ هـ.
٢٠. جامع الأصول : ابن الأثير الجزري : المبارك بن محمد (٥٤٤ . ٦٠٦ هـ) دار الفكر ، بيروت . ١٤٠٣ هـ.
٢١. الجامع الصغير : جلال الدين عبد الرحمان السيوطي (٨٤٩ . ٩١١ هـ) دار الفكر ، بيروت.
٢٢. حلية الأولياء : أبو نعيم : أحمد بن عبد الله الاصبهاني (المتوفى ٤٣٠ هـ) دار الكتاب العربي ، بيروت . ١٣٨٧ هـ.
٢٣. الخصائص الكبرى : السيوطي : جلال الدين عبد الرحمان (٨٤٩ . ٩١١ هـ).
٢٤. الخلاف : الشيخ الطوسي : محمد بن الحسن (٣٨٥ . ٤٦٠ هـ) دارالنشر الإسلامي ، قم المقدسة.
٢٥. دلائل النبوة : البيهقي : أحمد بن الحسين (٣٨٤ . ٤٥٨ هـ) دارالكتب العلمية ، بيروت . ١٤٠٥ هـ.
٢٦. رحلة ابن جبیر : أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبیر الأندلسي ، طبع دار صادر ، بيروت . ١٣٨٤ هـ.

٢٧. سفينة البحار : الشيخ عباس القمي (١٢٩٤ - ١٣٥٩ هـ) طبعة النجف الأشرف.

٢٨. السنن : ابن ماجه : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧ - ٢٧٥ هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت . ١٣٩٥ هـ.

٢٩. سنن أبي داود : سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

٣٠. سنن الترمذي : محمد بن عيسى بن سورة (٢٠٩ - ٢٧٩ هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

٣١. السنن الكبرى : البيهقي : أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ) دار الفكر ، بيروت.

٣٢. سنن النسائي : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (٢١٥ - ٣٠٣ هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

٣٣. السيرة الحلبية : برهان الدين علي بن إبراهيم الحلبي (المتوفى ١٠٤٤ هـ) المكتبة الإسلامية ، بيروت.

٣٤. السيرة النبوية : ابن هشام : عبد الملك بن أيوب الحميري (المتوفى ٢١٣ أو ٢١٨ هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

٣٥. شرح المقاصد : سعد الدين التفتازاني (٧١٢ - ٧٩٣ هـ) طبع آستانه.

٣٦. شفاء السقام : تقي الدين السبكي (٦٨٣ - ٧٥٦ هـ)

الطبعة الرابعة . ١٤١٩ هـ.

٣٧. الصارم المنكي : للشيخ عبد الهادي ، طبع مصر.

٣٨. الصحيح : البخاري : محمد بن إسماعيل (١٩٤ . ٢٥٦ هـ) مكتبة عبد الحميد

أحمد حنفي ، مصر . ١٣١٤ هـ.

٣٩. الصحيح : مسلم بن الحجاج القشيري (المتوفى ٢٦١ هـ) مؤسسة عزّ الدين ،

بيروت . ١٤٠٧ هـ.

٤٠. صلح الاخوان : للخالدي.

٤١. العقد الفريد : ابن عبد ربّه الأندلسي (٢٤٦ . ٣٢٧ هـ) دارالكتاب العربي ،

بيروت . ١٤٠٦ هـ.

٤٢. الغدير : العلامة عبد الحسين أحمد الأميني (١٣٢٠ . ١٣٩٠ هـ) دار الكتاب

العربي ، بيروت . ١٣٨٧ هـ.

٤٣. فتح الباري في شرح صحيح البخاري : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني

(٧٧٣ . ٨٥٢ هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

٤٤. فتوح الشام : محمد بن عمر الواقدي ، دار الجليل ، بيروت.

٤٥. فرقان القرآن : سلامة القضاء الشافعي ، مطبعة السعادة ، مصر.

٤٦. الفصل في الملل والأهواء والنحل : ابن حزم الأندلسي (المتوفى ٤٥٦ هـ) دار

المعرفة ، بيروت . ١٣٩٥ هـ.

٤٧. الفقه على المذاهب الأربعة : عبد الرحمان الجزيري ، دار

إحياء التراث العربي ، بيروت.

٤٨. القاموس المحيط : الفيروز آبادي : محمد بن يعقوب (٧٢٩ - ٨١٦ هـ) القاهرة .
١٣٣٣ هـ.

٤٩. كشف الارتياح : السيد محسن الأمين العاملي (١٣٧٣ هـ) الطبعة الأولى ،
دمشق.

٥٠. كنز العمال : المتقي الهندي (المتوفى ٩٧٥ هـ) مؤسسة الرسالة ، بيروت .
١٤٠٥ هـ.

٥١. لسان العرب : ابن منظور ، محمد بن مكرم (٦٣٠ - ٧١١ هـ) قم المقدسة .
١٤٠٥ هـ.

٥٢. مجلة رسالة الإسلام : تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية ، القاهرة
، مصر.

٥٣. مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودي : علي بن الحسين (المتوفى ٣٤٥ هـ)
منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت . ١٩٦٥ م.

٥٤. المستدرک : الحاكم النيسابوري : محمد بن عبد الله (المتوفى ٤٠٥ هـ) دار المعرفة
، بيروت.

٥٥. المسند : أحمد بن حنبل (المتوفى ٢٤١ هـ) دار الفكر ، بيروت.

٥٦. مصباح المتهجد : الشيخ الطوسي : محمد بن الحسن (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ).

٥٧. معجم الزوائد : الهيثمي : علي بن أبي بكر (٧٣٥ - ٨٠٧ هـ)

دارالكتاب العربي ، بيروت . ١٤٠٢ هـ.

٥٨. المعجم الكبير والأوسط : سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ . ٣٦٠ هـ) دار
إحياء التراث العربي ، الطبعة الثانية ، بيروت.

٥٩. المغني : عبد الله بن قدامة (٥٤١ . ٦٢٠ هـ) دار الكتاب العربي ، بيروت .
١٤٠٣ هـ.

٦٠. المفردات : الراغب الاصفهاني : الحسين بن محمد (المتوفى ٥٠٢ هـ) مطبعة
الميمية ، القاهرة ١٣٢٤ هـ.

٦١. الملل والنحل : الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم (٤٧٩ . ٥٤٨ هـ) دار المعرفة
، بيروت . ١٤٠٢ هـ.

٦٢. المواقف : القاضي عبد الرحمان الإيجي (المتوفى ٧٥٦ هـ) مطبعة السعادة ، مصر .
١٣٢٥ هـ.

٦٣. المواهب اللدنية : أحمد بن محمد القسطلاني (٨٥١ . ٩٢٣ هـ) المكتب
الإسلامي ، بيروت . ١٤١٢ هـ.

٦٤. نهج البلاغة : جمع الشريف الرضي (٣٥٩ . ٤٠٤ هـ) بيروت . ١٣٨٧ هـ.

٦٥. وفاء الوفاء : علي بن أحمد السمهودي (المتوفى ٩١١ هـ) دار احياء التراث
العربي ، بيروت . ١٤٠١ هـ.

٦٦. اليواقيت والجواهر : عبد الوهاب الشعراي ، مكتبة مصطفى الباي الحلبي ،
مصر . ١٣٧٨ هـ.

فهرس المحتويات

- كلمة المؤلف ٥
- كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة..... ٧
- اهتمام النبي صلى الله عليه وآله بوحدة المسلمين ٨

الفصل الأول

في تحديد الايمان والكفر

- الايمان رهن الاعتقاد بأصول ثلاثة..... ١٤
- ما أثر عن النبي صلى الله عليه وآله حول دعائم الاسلام والايمان..... ١٤
- كلمات الاعلام حول حظر تكفير المسلم..... ١٧
- السنة النبوية وتكفير المسلم..... ١٨
- مسائل كلامية لا تمت إلى العقيدة الاسلامية بصلة..... ٢١

الفصل الثاني

التوحيد ومراتبه وأقسامه

- الأول : التوحيد في الذات..... ٢٣
- الثاني : التوحيد في الخالقية..... ٢٤

٢٥.....	الثالث : التوحيد في الربوبية
٢٨.....	الرابع : التوحيد في التشريع والتقنين
٢٩.....	الخامس : التوحيد في الطاعة
٣٠.....	السادس : التوحيد في الحاكمية
٣١.....	السابع : التوحيد في العبادة

الفصل الثالث

حقيقة العبادة ومقوماتها

٣٣.....	العبادة في المقام
٣٥.....	ركنا العبادة : العملي والقلبي
٣٦.....	مقارنة بين الموحد والمشرک في الخضوع
٤٤.....	سؤال وإجابة

الفصل الرابع

تعريف العبادة

٤٧.....	التعريف الأول : الخضوع التابع عن اعتقاد بألوهية المخضوع له
٤٨.....	التعريف الثاني : الخضوع التابع عن اعتقاد بربوبية المخضوع له
٤٩.....	التعريف الثالث : الخضوع التابع عن اعتقاد بتفويض الأمور للمخضوع له
٥٠.....	الخضوع التابع عن غير هذه الثلاثة ليس عبادة

الفصل الخامس

تطبيقات على ضوء تعريف العبادة

١. زيارة القبور ٥٥
- الآثار لبناء لزيارة القبور ٥٦
- زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله والروايات الواردة فيها ٥٧
٢. شد الرحال إلى زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله ٦١
- سيرة المسلمين على شد الرحال إلى زيارة النبي صلى الله عليه وآله ٦٢
- سفر بلال لزيارة النبي صلى الله عليه وآله ٦٣
- بعث عمر بن عبدالعزيز بريداً من الشام إلى المدينة للزيارة ٦٤
- سؤال وإجابة ٦٦
- تفسير حديث (لا تشد الرحال إلّا إلى ثلاثة) ٦٧
٣. البناء على القبور ٦٩
- مؤارة المسلمين جسد النبي صلى الله عليه وآله تحت السقف ٦٩
- القباب المشيدة على البقيع في العصور الأولى ٧٠
- أرجوزة السيد الامين العاملي ٧٣
- البناء على القبور من منظار آخر ٧٤
- البناء على القبور من مظاهر الحب ٧٥
- مظاهر الحب المختلفة ٧٦
- المضاعفات الخطيرة لهدم الآثار الاسلامية ٧٧
- تفسير حديث أبي هياج وأنّ المراد هو النهي عن التسليم ٧٨

٤. بناء المساجد على القبور والصلاة فيها ٨١
- أصحاب الكهف واقتراح المسلمين بناء المسجد على قبورهم..... ٨٢
- سيرة المسلمين في البناء على قبور الصالحين ٨٣
- صلاة النبي صلى الله عليه وآله في بيت لحم..... ٨٥
- تفسير اتخاذ اليهود قبور أنبيائهم مساجد..... ٨٦
- نقل كلام القرطبي والبيضاوي حول الحديث ٨٩
٥. التوسل بالأنبياء والصالحين ٩١
- انقسام الاسباب إلى مادية وغيبية ٩٢
- أقسام التوسل الخمسة ٩٣
- أ. التوسل بدعاء النبي والصالحين في حياتهم ٩٣
- ب. التوسل بذات النبي صلى الله عليه وآله وقدسيته ٩٤
- الاستدلال بحديث الضرير على جواز الأمرين..... ٩٥
- استسقاء عبدالمطلب وأبي طالب بالنبي صلى الله عليه وآله ٩٩
- استحباب اخراج الصبيان والنساء الطاعنات في السن في الاستسقاء ١٠١
- التوسل بعم النبي ١٠٢
- ج. التوسل بحق النبي والأنبياء والصالحين..... ١٠٢
- الاستدلال بحديث أبي سعيد الخدري على هذا النوع من التوسل ١٠٣
- د. التوسل بدعاء النبي صلى الله عليه وآله والصالحين بعد رحيلهم..... ١٠٥
- الاستدلال بالآيات القرآنية على خلود الأرواح..... ١٠٦

١١١	دلالة الآيات على وجود الصلة بين الحياتين : الدنيوية والأخروية.....
١١٣	دلالة السنّة الشريفة على الصلة بين الحياتين.....
١١٤	النبي صلّى الله عليه وآله ينادى قتلى قريش يوم بدر
١١٥	سؤال وإجابة
١١٧	هـ. طلب الشفاعة.....
١١٨	الاستدلال على جواز طلب الشفاعة بالسنّة.....
١٢٠	٦. انتفاع الموتى بأعمال الأحياء.....
١٢٠	انتفاع الانسان بعمله وعمل غيره.....
١٢٢	استغفار الملائكة للمؤمنين.....
١٢٣	دلالة السنّة على انتفاع الموتى بأعمال الأحياء.....
١٢٥	جواز النذر لأهل القبور.....
١٢٦	السنّة وجواز النذر للموتى.....
١٢٧	الغاية من النذر التقرب إلى الله وإهداء الثواب إلى أرواح الموتى.....
١٢٩	٧. التبرك بآثار الأنبياء والصالحين
١٣٠	تبرك يعقوب بقميص يوسف
١٣١	تبرك الصحابة بفضل وضوء النبي صلّى الله عليه وآله وغسله وسؤر شرايه
١٣٣	٨. البدعة والاحتفال بميلاد النبي صلّى الله عليه وآله
١٣٣	البدعة لغة غير البدعة شرعاً.....
١٣٤	البدعة هي إدخال ما ليس من الدين في الدين
١٣٧	الاحتفال بمواليد الأنبياء والائمة والصالحين ، له أصل في الشريعة

- سيرة المسلمين والاحتفال بميلاد النبي صلى الله عليه وآله ١٣٩
٩. البكاء على الميت ١٤٠
- بكاء النبي في غير واحد من المواقف على أحبته ١٤١
- بكاء الصديقة الطاهرة عليها السلام على أبيها ١٤٣
- بكاء الصحابة على النبي صلى الله عليه وآله وقصائدهم ١٤٤
- حديث تعذيب الميت ببكاء أهله ونقده ١٤٧
- نقل كلام الشافعي حول الحديث ١٤٨
١٠. الحلف على الله بحق الأولياء ١٥٠
- حلف النبي صلى الله عليه وآله بحقه وبحق الأنبياء عند دفن فاطمة بنت أسد ١٥١
- ورود الحلف على الله بحق الصالحين في الأدعية ١٥٢
- سؤال وإجابة ١٥٣
١١. الحلف بغير الله ١٥٥
- ورود الحلف بغير الله في القرآن الكريم ١٥٥
- ورود الحلف بغير الله في السنة النبوية ١٥٧
- سؤال وجواب ١٥٨
١٢. تسمية المواليد بإضافة العبد إلى غير الله سبحانه ١٦٠
- العبودية وتفسيرها وأقسامها الثلاثة ١٦٠
- فهرس المصادر ١٦٣
- فهرس المحتويات ١٧١